آن فيليب

زمن تنهيدة

رواية



ترجمة

س محمود - عبد القادر النابلسي



زمن تنهيدة

* زمن تنهيدة
* آن فيليـــــب
* الطبعة الأولى 1999

* دار الحصاد للنشر والتوزيـع والطباعـة
سورية ـ دمشـق ـ ص. ب : 4490
هـاتـف ، فـاكـس : 2126326

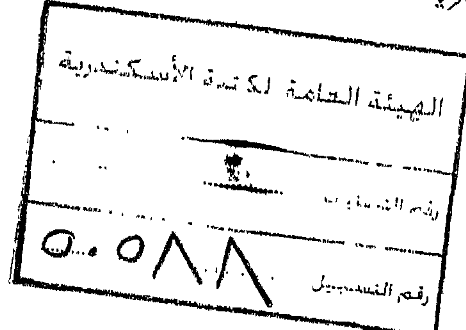
آن فيليب

زمن تنهيدة

(رواية)

ترجمة

عبّاس محمود
عبد القادر النابلسي





الإهداء

إلى من ينزفون حياتهم محبةً ـ رغم الهزيمة

إلى من يتلون صلوات الحياة... رغم الموت

إلى كلِّ أولئك الذين طهَّرتنا دموعهم ونحن في مسيل الجراح...

عبد ـ عباس



كلمة المترجم

ولدت آن فيليب في العشرين من حزيران 1917 في بروكسل، ودرست في بلجيكا، ثم استقرت في فرنسا منذ مطلع عام 1939 . تزوجت في العام 1951 من الكوميدي الشهير والممثل السينمائي جيرار فيليب (توفي عام 1959).

في عام 1955 ، وتحت عنوان «قوافل آسيا» صدر لها وصفٌ لرحلة رائعة كانت قامت بها في عام 1948 بعد إقامة في الصين دامت عاماً: كانت آن قد شرعت في العودة نحو الهند عبر طريق الحرير، وكانت الفرنسية الأولى التي تجتاز السين ـ كيانغ برفقة قافلة تجار متجهة إلى كشمير.

وبوصفها مؤلفة للعديد من الوثائق التي تتحدّث عن آسيا وأفريقيا، كانت سبباً في تأسيس لجنة الفيلم الاثنوغرافي

(يحكي عن الأعراق)، بالاشتراك مع جان روش. وقد نشرت تحقيقات صحفية عن كوبا وفنزويلا، وعن السينما اليابانية، لاسيما في اللوموند والليبراسيون. وخلال زمن قصير كانت قد نجحت في إبراز موضوع نقد الأفلام العلمية والوثائقية في مجلة «الآداب الفرنسية». كتبت أيضاً «زمن تنهيدة»، وهو سرد لإلهامات سيرتها الذاتية، التي رأت النور في عام 1963 ، وكذلك «مواعيد الرابية» (في عام 1966).

على صعيد الديمومة الزمنية ما الذي تشكّله حياة الإنسان في سلم الكون؟ إنها «تكاد تكون الزمن الذي تستغرقه تنهيدة». نقول هذا ونعرفه، ولكنْ ماقيمة هذه الحكمة حينما يقرع الموتُ الباب، حينما يحصد أحدَ الزوجين في ريعان شبابه، تاركاً الآخر في البيت الفارغ؟

في تدفق الذكريات، حيث تختلط الساعات الأليمة التي سبقت هذا الفراق الأبديّ مع اللحظات السعيدة لما قبل المرض. هذا الوصف الدقيق الذي يصدر عن آن فيليب يطفح بالتأمّل العميق في الموت، في الحب، وفي السعادة.

كل مايقال من خلال النبرة الأكثر صوابية عمّا يقتضيه

الفراق، وبالتالي عمَّا يفترضه من استجماع همَّةٍ بُغية تحمُّله وقبوله ـ انتصاراً للصفاء على العزلة والألم، دون استجداء الغيب أو الدين. وهذا مايمنح القيمة لهذه الصفحات الشملة بالعذوبة والوضوح.



1

الحزن هو انتقال المرء من الكمال الأعلى
إلى الكمال الأدنى

سبينوزا(*)

أستيقظ باكراً. لاتزال العتمة طاغية، وعيناي مُغمضتان، أحاول العودة إلى النوم، غير أني لاأستغرق عميقاً فيه. ألبث على شاطئ كئيب ورمادي في منتصف الطريق بين الواقع

(*) باروك سبينوزا (1632 - 1677): فيلسوف هولندي من أصل يهودي. وُلِدَ في أمستردام. عرف فلاسفة العرب واليهود ومؤلفات ديكارت. امتاز باستقامة أخلاقه وخطَّ لنفسه نهجاً فلسفياً يؤدي إلى الحلولية الفكرية. فالله في نظره جملة صفات لا حدَّ لها، نعرف منها الفكر والمكانية. أما العالم فمجموعة أشكال هاتين الصفتين، المنجد في الأعلام.

والكابوس. من الأفضل أن أشعل النور وأقرأ؛ أتجنّب المتاهات التي يلجها الفكر، غير أن التعب يُبقيني مُستسلمةً فأنقاد إلى ذكريات مضيئة أقاربها أحياناً فتجتاحني إلى حد أنها، وفي غضون لحظة، تختلط لدي مع الواقع، غير أن الوعي لايلقي سلاحه، ومن ذكرى إلى أخرى أنسابُ، لاويةً رأسي نحو الوسادة التي لاأزال أضعها إلى يميني كل مساء، لرؤية وجهك الميّتِ، المائلِ نحو مكاني الفارغ في اللحظة التي فارقتك فيها الحياة. أرى عينيكَ المفتوحتين، وجهَكَ الهادئَ الساهي، يديك براحتيهما المبسوطتين، واللتين أكّدتا لي، للوهلة الأولى، بأنك لم تتعرّض لأي ألمٍ أو قلق. في ذلك اليوم وخلال الساعات التي مضت وأنا أتأمّلك وأمسك يدك التي أخذت تتصلّب شيئاً فشيئاً وأداعب وجهك، كنت قد شعرتُ بأنك كنت تستريح على سريرنا كما لو أنك على شاطئ، وبأنني كنت مجروفةً رغماً عني ـ للحيوية ـ في تيار لايُقاوَم. كنتَ ساكناً إلى الأبد، وأنا بعدُ، وحتى حين، في حالة حَراك. لقد فرّقنا الموت إلى الأبد.

أفتح عينيّ، أشعل النور، أغتاظ حتى من نفسي. يبدأ النهار، ولاأراه يوحي بأي بارق للسعادة. وحدَك كنت تراني، ووحدي أراك. أما اليوم فألبث في عالم بلا أفق. أعيش خواءً. كنتُ أعرف أن هذا ماسيحدث. فكل يومٍ من تلك الأيام

كان يُمكن أن يكون الأخير، وخلال ذلك، كنتُ أنظر إليك، أتوخّى رؤية الحب، غير أني كنت أعثر على الموت، كنت أفكّر: «لو أنك أنت أيضاً، تنظر إلي ستكون ذكرى على الأقل، أما أنت فلن يكون لديك شيء. كل شيء سيختفي، حتى إحساسك بالذكرى. إنه العدم، ستعودُ إلى العدم.» كنتُ أسكر من مرآك، أغرق في حركاتك، في نظراتك. أبتسمُ لك كيما أحظى بولادة ابتسامتك، أقبّل يدك كي أراك وأنت تقبّل يدي. وكنت أقول لنفسي؛ لن أنسى ذلك أبداً، أبداً فقد توخيت أن تبقى كل بصمةٍ منك مطبوعةً على جسدي، وأن تحول كلُّ مداعبة مني دون استيلاء العفونة على جسدك. كنت أقاوم ضد المستحيل، وقد هُزِمتُ لأنك هُزِمتَ، غير أنك كنت تجهل هزيمتك.

أردت أن أمشي، ألّا أكفَّ عن المشي أبداً. هكذا وحسبُ تبدو لي الحياة ممكنة. كنتُ أحبُّ تناغم خطوتنا، وكان ذلك أجمل حقيقة في الكون. إلى أين سأمضي اليوم، فالسيرُ ليس أن نضع قدماً أمام الأخرى فقط. أين غايتي؟ أُذعن للأوامر بلا تلكؤ: أحيا، وأتيح لغيري العيش. وهذا أمر هيّنٌ إلى حدٍ ما، ومن خلال ذلك فقط أضع الأمور في نصابها ومن ثم يصبح بوسعي، أن أنجز ماينبغي فعله.

في سكون الشتاء، وعلى الأرض العارية، الخالية من

الرائحة، أشعر بأنني على مايرام، أكابد من أجل الإغفاءة ذاتها. في الربيع قد أبحر في الأوان غير المناسب. وقد تغمرني الشمس والشذا وشدو العصافير.

ما العمل إزاء الزهرة الأولى سوى محبتها والتوق للعيش بمثل بساطتها؟

أينبغي القبولُ بغدٍ أنت غائب عنه؟

أتمشّى في حدائق اللوكسمبورغ. أتبع الطرقات ذاتها التي سلكتُ منذ عامين. في ذلك الحين كان الوقت باكراً، وكانت المقاعد مهجورة كان بضعة تلاميذ يمشون مسرعين. وكانت زخّات المطر تتساقط في ضوء الصباح المتلألئ. ومع أن السنة كانت تميل نحو الشتاء، فإنها لم تمطر كما أمطرت في هذا اليوم. إنه الموت بالنسبة لهذه الورقة التي كانت تلهو بها يد الريح، ولتلك التي أطؤها بقدميّ. غير أن أوراقاً أخرى ستنبت من جديد. ولكن هل كان بوسعي الإقرار بأن أناساً يولَدون إن تموت؟

تجوّلت وتجوّلت في الممرات المعروفة والمحبّبة لدي. كانت الأشجار كلٌّ تنتصب كسارية. وكنت أحكي لك عن كل مالم نكن لنحكيه قط. كنت أتنفّس ببطء ملء صدري، ولم أتجرّأ على الجلوس، فالتوقف كان يخيفني. كنت أمشي

وكأنني أمضي بلا نهاية عبر العالم. كنت أتنفَّس كمن يعبُّ الماء بعد مباراة جري. ولم أكن أفتِّش عن أي حلٍّ مادام الحل ماثلاً. حلٌّ لايمكن تحمُّله. هذا كل مافي الأمر.

حتى ذلك الحين لم يكن ليشغلني أمر الموت أبداً؛ لم أكن أحسب له أيَّ حساب. وحدَها الحياة كانت تعنيني. أما الموت؟ إنه موعدٌ محتَّم، وفي الوقت ذاته خائبٌ أبداً، مادام حضوره يعني غيابنا. وهو يحلٌّ في اللحظة التي نكفٌّ فيها عن الوجود. إما هو وإما نحن. بوسعنا أن نستقبله بكل وعي، ولكنْ هل نستطيع التعرُّف عليه؛ ألم يكن كلمح البرق؟ سأكون مفصولة إلى الأبد عمَّن أحببته أكثر من أي أحدٍ في العالم. الـ «إلى الأبد» كانت على بابنا. كنت أعرف أن ليس ثمة أي رابطٍ يربطنا سوى حبِّي، حتى لو كانت بعض الخلايا الأكثر رهافة، التي يسمُّونها الروح، مستمرة في الوجود، كنت أقول لنفسي بأنها من غير الممكن أن تُمنح ذاكرة، وبالتالي فإن فراقنا سيكون أبدياً. كنت أردِّد لنفسي بأن الموت شيءٌ تافه، والأمر الوحيد الذي يجعل دُنوَّه شنيعاً هو الخوف والمعاناة الجسديَّة والألم الناتج عن فراق أولئك الذين نحبُّهم أو نشاركهم بأعمال؛ وبأن هذا سيكون بمنأى عنك. ولكن أن ينتهي كلُّ شيءٍ دفعةً واحدة!

كنت أتقصى تعاستي، وكان لزاماً عليَّ أن أعود حتى

إلى ذكريات طفولتي لأنبش بكلِّ دأب سوادَ الليل والقتامة، ذلك الإحساس بالغرق والاختناق. كان عمري أربع أو خمس سنوات. كنت مع أمي في المحطَّة، وكنا نقف بالرتل أمام الكوَّة. وحينما جاء دورنا قالت أمي: «بطاقة واحدة ذهاب - إياب، ونصف بطاقة ذهاب لـ ف....»(*) إنني لاأرى الشخص الذي تخاطبه أمي، ولكنني أسمع وأنا أقترب منها. ماعادَ بوسعي أن أتذكَّر ماإذا كنت التصقت أكثر فأكثر بجسدها، غير أنني لاأزال أتذكر إلى اليوم تدفُّق دمي نحوها كما لو أنها المرفأ الوحيد، مصدر الأمان الوحيد في العالم. إننا الآن في القطار. كنت أميِّز الرحلة محطةً محطة، فهي ليست المرة الأولى التي أقوم فيها بهذه الرحلة. وأعرف ماينتظرني. أعدُّ الساعات التي بقيت لي للعيش قرب أمي قبل أن أفارقها لزمنٍ يُخَيَّلُ إلي أنه بطولِ الحياة ذاتها. أعتقد أنني كنت تعوَّدت، حتى ذلك الحين، ألَّا أبكي. ولكن ثمة أخطبوطاً في داخلي، يعصر قلبي، يصعد حتى الحلق ويعطي ريقي طعم العلقم. فأنا، شأني شأن الكثير من الأطفال، طفلةٌ لوالدين مطلَّقين، رهانٌ لكائنين، بعد أن كانا متحابين، يريدان الانتقام، أحدهما من الآخر. عموماً، الأمر مألوف إلى حدٍ بعيد. فأنا

(*) تُقطع نصف بطاقة لطفلة في مثل هذا السن. م

سأكمل «سِنّ فتوتّي» عند أقرباء والدي، عند أخيه وزوجته، وليس عند والدي. يتوقَّف القطار: ف... لم يبق لي سوى ربع ساعة من العيش فقط. سنستقلُّ عربة، وهناك، في العربة، سأحتضن أمي. يتقدَّم الحصان ببطء لأن شارع فرنسا يصعد راسماً منحنىً كبيراً. هاهو المنعطف الأخير. أرى البيت، أبيضَ كسائر البيوت، بمرآته الموجودة في الطابق الأول، والتي تسمح لك برؤية من يقرع الباب أو من يمرّ دون أن تُرى. بقي لدي من الوقت مايكفي للعدِّ للعشرين، حيث يُفترض أن تدور العربة إلى مكان وجود البيت في الجهة اليسرى. وعندئذٍ ستلفُّني أمي بين ذراعيها، وسأعانقها بكل قواي. ستعود في العربة نفسها دون أن تترجّل منها؛ وأنا إلى جانب امرأة عمي خالتي، سأرسم لها بيدي، شارة وداع يغلِّفها الرياء، بينما قلبي سيدق بعنف، إنني أعرف، لأنني تعلّمت من قبل، أنه مُحظَّر الإفصاح عن أي شيء في هذا المكان. أدخل البيت. الغرفة الأولى إلى اليسار، يليها الصالون. لم يدخلْهما أحدٌ قط. أغطية الأثاث، السجاد، وكذلك الجدران، لها نفس اللون. يلي بعد ذلك، قاعة الطعام التي تطلُّ على فسحة صغيرة تُفضي بدورها إلى الحديقة عبر بضع درجات. لكنَّ الشيء الوحيد الذي أعُدّه بمثابة عقوبة لي، هو تلك المرآة الهائلة التي تجثم قبالتي خلال الوجبات. ففي كلِّ مرة أرفع بصري،

أسمع: «لاتنظري في المرآة!» أُخفضُ رأسي وأجترُّ دون أن أبتلع: «كُلي!» صمت. صمت بغيض، ما من شيء يشوِّشه سوى أدوات المائدة. وعمِّي وزوجته لايتحادثان؛ كأنهما ليسا زوجين، هما أسرة، أسرة بلا أطفال.

نعم، ذلك هو مبعث الشعور بالمرارة. فبعد ذلك بزمنٍ طويل، تعرَّفت على مشاعر الحنق والغضب، غير أنني كنت قد قرَّرت تماماً أن أصوغ سعادتي.

2

«كم يستغرق الأمر؟ سألت الأطباء وهم يُدخلونني إلى القاعة الصغيرة المجاورة لغرفة العمليات.

ـ من شهرٍ إلى ستة أشهر كحدٍ أقصى.

ـ أليس بوسعكم أن تؤخّروا إيقاظه مادام لايزال نائماً؟

ـ لاياسيدتي.

كنت قبل ذلك بخمس دقائق قد نهضت عن كرسيّ. كنت في قاعة الانتظار مع أصدقائنا الأكثر حميمية.

جاءت إحدى الممرّضات مناديةً: السيدة «X». تبعتها وأنا أفكّر: «إنه وقت قصير جداً، فهم حدّثوني عن ساعة ونصف، في حين لم تكد تمضي عشرون دقيقة على صعوده».

وماإن رأيت الأطباء الأربعة، بأرديتهم البيض، يتقدمون نحوي، حتى قرأت مافي وجوههم كما لو في كتابٍ مفتوح. قدَّم أحدهم لي كرسياً دون أن ينبس ببنت شفة. فهمت. كنت أعيش لحظات تنفيذ إعدامي، في حين أن ذلك الذي يعاني سكرات الموت، كان يرقد على بُعد أمتار.

«سيتألَّم؟»

ـ أبداً، بل سيكون، بلا شك، موتاً سببه الإنهاك».

نزلت ثانيةً، المصعد ذاته، وظاهرياً كان يشغله الشخص نفسه(*)، أما في داخلي فكنت أشهد نهاية العالم، قلت لأحدهم: «انتهى الأمر». استُدعيت إلى الهاتف، لقد بدأتُ أكذب. بعد ذلك بقليل دخلتُ الغرفة التي وضعوكَ فيها منذ قليل. كانت الممرِّضة المناوبة تقطر المصل في رِجلك اليسرى قطرةً قطرةً. وكنتَ تتنفَّس بصعوبة بسبب جهاز التنفس الأنفي. لو قُيِّض لك أن تستريح هكذا، بوجه شاحبٍ وحزين، ككل أولئك الذين لايزالون نائمين، لكان كل شيء على مايرام؛ هذا ماكنتُ أتوهَّمه خلال لحظات الثقة التي انتابتني: ثلاثة أيام بائسة، تليها حياة كاملة أمامنا. إنها ثلاثة أيام، ثم

(*) تقصد نفسها. م

الموت في نهاية المطاف، وبدءاً من هذه اللحظة، تحلُّ الكذبة بيننا.

حتى وأنت نائم، لم أكن أجرؤ على النظر إليك باليأس والجنون اللذين كانا يفتكان بي. أكرهتُ نظري على الإذعان للسكينة، كنت أكرر أمامك، وأنت فاقد الوعي، الملهاة التي سأمثّلها أمام ناظريك، والتي كانت كل ماتبقّى لي من حياتنا المشتركة. آخر نظرةٍ لنا بوصفنا زوجين، تلك التي تبادلناها بالتساوي، بينما كانت الممرّضة تضعك على عربة العمليات.



3

ثمانية أعوام مضت على يوم السبت ذاك. كان الطقس لايزال بارداً. لم يكن الربيع ملحوظاً بعدُ في باريس، أما في الريف فكان الإحساس به ممكناً حينئذٍ على الرغم من رمادية السماء وعري الأشجار.

كنا نطوف مسترشدين بخريطةٍ أعطانا إياها المكتب العقاري. وكثيراً ماتهنا قبل وصولنا إلى القرية واكتشاف الحاجز الشبكي الكبير المغلق. سلكنا الممر المشجَّر، وفي نهايته بدا لنا البيت قبيح المنظر، أصفر وأحمر، مزيَّناً في وسطه بدرجٍ خارجي ناتئٍ كثؤلولٍ فوق الأنف والشيء الوحيد الذي بدا أنيقاً هو السقف القرميدي العتيق. كان ثمة عجوز، يحشُّ العشب في أحد المروج. تقدّم نحونا. كان منتصب القامة،

مشدوداً قليلاً، على شاكلة ضباط الخيّالة. أتذكر ربطة عنقه المعقودة بإحكام، وياقته المنشّاة وقبّعته اللبّادية، وكذلك عينيه البرّاقتين اللتين تنمّان عن شيء من المكر. كان يتملّانا بدقة، ويتحدّث إلينا بجمل قليلة ومقتضبة.

نعم، العقار للبيع فعلاً، وبوسعنا زيارته. «لكن المنزل» - أضاف «فهذا ليس بعهدتي - وإن شئتم أُنادِ السيدة». أما السيدة فكانت زوجته. ذهب لإحضارها، ثم جاءت وقد ألقت شالاً نهدياً على كتفيها، حيّتنا بلطف شديد ثم طلبت إلينا أن نتبعها، وكانت المفاتيح في يدها. فتحنا مصاريع النوافذ واستطلعنا البيت. في الحال بدأ خيالي يصدح، فكلّ نافذة تسفر عن حيّز يفيض برومانسية رهيفة. ربما يكون البيت ملائماً لما ننوي القيام به؛ فالنهر ينساب على بُعد عشرين متراً منه، والأشجار وافرة، والصمت يعمُّ المكان. سنجعل منه حضانة للحب.

كان الحدائقي بانتظارنا أمام الباب، قادنا إلى البستان ليعرّفنا على الأشجار. كان يتوقف عند كل شجرة، يلامس جذعها ويُرينا البراعم الجديدة. ثم قال:

كانت أشجار الكستناء مريضة، باستثناء تلك الشجرة التي ترتفع أمام البيت، والتي تحمل أزهاراً قانية الحمرة حيث

تضيء الواجهة كلها. أما السنديانة فهي الشجرة الأجمل في المنطقة؛ انظروا إلى جذعها المنتصب تماماً، وهناك في الأعلى، الممر المزنَّر بالأرز، المتاخم لأجمَة البتولا الصغيرة، والتي أعرفها مذ زرعوها، وهي فكرة أحد المُلّاك، الوحيد من بين الآخرين الذين كانت لديه بعض الخبرة بالأشجار، وكان يحبّها. أما الآخرون، الذين جاؤوا بعده، فكانوا يفضِّلون منطقة موغيف أو الشاطئ اللازوردي. الريف تنبغي محبته والتعرُّف عليه... وأنتم، هل تحبُّون الريف؟

ـ نعم نحن نحبه.

ـ أما أنا، قال، فأعتبره حياتي، غير أني لست سوى الحدائقي، وبالمُستطَاع طردي. لقد نطق بهذه الكلمات وهو ينظر إلينا بعينين يملأهما زهو عجيب.

لقد أحببتُ السيد ب منذ تلك اللحظة. في الجنينة المزروعة على مساحة ثلاث مصاطب دلَّنا على الأشجار المثمرة، وحدَّثنا عن التربة التي راح يسحق بعضاً منها بين سبَّابته وإبهامه. كما وشاهدنا مساكب الجزر والخضار والفريز، وسياج الزعتر ونباتات عود الصليب الكثيفة. وعلى الطرف الآخر للممر المزروع بالكستناء يترامى الجزء المهجور من البستان، وهو عبارة عن نباتٍ حراجي كبير يغزوه الطحلب

واللبلاب والأخشاب اليابسة، بعد ذلك سلكنا درباً ضيّقاً محاذياً لنهر الـ واز.

من حافة النهر لوّحنا للبحّارة الذين كانو يمخرون النهر بقاربهم. أما السيد ب فلم يُلفت انتباهَه الماء.

ـ أيمكن الاستحمام فيه خلال الصيف ؟

لابدّ أن السؤال بدا له أخرقاً.

ـ إن كنتم لا تتقززون، يمكنكم ذلك، فثمة من يذهب إلى هناك؛ غير أنه مليء بالمازوت والقطط المتفسخة.

على أطراف المرجة الخضراء أشار لنا السيد ب إلى ما يعتبره مثار اعتزازه: أشجار مقلّمة على شكل ديكةٍ وعصافير.

ـ هكذا يكون العمل! فلكي تقلم شجرة على هذا الشكل، يستغرق ذلك ساعات، علاوة على أنه ينبغي معرفة القيام بذلك، وحدائقيو هذه الأيام لا يريدون تعلم المزيد، فهذا صعب جداً.

كانت مسألة المبالغة في التصنّع أكره ما نكره في الحياة؛ لكننا من منطلق التهذيب والشفقة، كنا قد أبدينا إعجابنا قدر الإمكان.

هذا كل ما كان في ذلك اليوم. ونحن خارجون من

العقار، توقفنا عند المرتفع. كان نهر الواز يجتذب ظلال الغيوم إلى وسط الحقول التي كانت لا تزال معتمة. وعلى خط الأفق تقريباً، كانت تنتصب الكنيسة محاطةً ببعض البيوت. وقد بدا لنا ذلك كله جميلاً ورائعاً. حملتني رغبةٌ لا تقاوم للتحدث إليك، لكنني سكتُّ، أو على الأقل، كتمتُ الأهم؛ إذ لم أكن بعد متأكدة تماماً من أني أتوقع طفلاً، الأمر الذي منعني من إشراكك بسعادة قلِقة.

عدنا بعد خمسة عشر يوماً. كان الربيع يزداد زهواً. أوقفنا السيارة في المكان نفسه، ورحنا في هدوء الريف نرقب الشمس التي كانت وقتئذٍ قد ارتفعت عالياً وهي تلتهم الضباب وتشتته بتؤدة، لتكشف عن سطح المنزل الذي اشتريناه، والذي كان متوارياً بين الأشجار.

* * *

مرَّ الزمن، والأطفال وُلدوا. وهذا مساء كغيره من المساءات. أنتظرك. لم أكن أميّز شخير محرك سيارتنا وحسب، وإنما أيضاً طريقتك في التسارع أو الإبطاء في أماكن بعينها، وتبعاً لمزاجك. وعيناي مغمضتان، أسمع كل حركةٍ تصدر عن الليل. ها أنت هناك، تتوقف لتفتح البوابة الشبكية دون صرير، ثم لا تعيد إغلاقها، إذن فأنت متعب. عجلات

السيارة تصرُّ على الحصى، أضواؤها تداعب المصاريع المغلقة. تتحدثُ إلى الكلب، تتسلق الدرج، تخلع نعليك كي لا توقظني. تدخل ها أنت هنا. ها نحن موجودان.

* * *

غالباً ما يكون البيت غارقاً في النوم عندما أنسلّ إلى الحديقة. وهي الساعة الأكثر روعةً، والتي أسميها الساعة الصيفية. النهر يلتمع تحت الضباب الخفيف، والمروج الخضراء تختزن ندى الليل. نوافير الماء تفتل في مساكب الخضار والورد؛ والحدائقي يحوّش الخضراوات، وأنا أشاهد معه الثمار التي تنضج. وكذلك آتي كل صباح لأستطلع الأشجار، السندر والأرز والخوخ والتين، وأقطف أزهار الموسم. وعندما تستيقظ سأوافيك بكل جديد عن أشجارنا وأزهارنا.

في ليلة من ليالي أيلول، كنا عائدين من رحلةٍ طويلة. لم يسمعنا أحد، والكلب لم يعوِ، إنما عبّر لنا عن سعادته من خلال احتكاكه بنا بصمت. جلسنا على الجدار الحجري الذي يشرف على النهر. البدر يغمر البيت الأبيض والبستان الذي نعرف كل أسراره.

لسنين عديدة ونحن نهجس بأنه انطلاقاً من حبّنا كان بالإمكان أن ننشئ أطفالاً، مهنةً، صداقاتٍ، بيوتاً؛ وربما نسهم

في بناء عالم أفضل. وهاقد حان وقت التحقُّق. إننا بتّاؤون مدهشون؛ وفي هذه الليلة نكتشف بأن مشاريعنا أصبحت حقيقة، ربما لأنَّ تغرّبنا يمنحنا حدة أكثر حيوية، ولأن هذه الليلة شديدة الروعة.

* * *

عندما عرفت بأنك تلج درب الموت، أدركت في الحين ذاته بأنني لن أعود إلى هنالك مطلقاً. غير أنني ذهبت مرةً واحدةً بناء على طلبك كان السيد ب يعمل كما رأيناه أول مرة. كان يلملم من المرجة الخضراء نفسها الأوراق اليابسة لشجرة الكستناء ذات الأزهار الحمر. تَعانقنا. سألني عن أحوالك الصحية. كانت حالتك جيدة، وربما ستعود ماإن تستطيع النهوض.

انتهى الأطفال من اللعب، جهَّزتُ الشاي وتناولناه ونحن نرقب الممر الذي كانت تظهر منه السيارة عادةً لدى قدومك. جئت إلى هنا لآخر مرة. كانت المطارح فاقدةً سحرها؛ فما كنا قد خلقناه كان سيعيش بدوننا. تملكتني نقمة حادة ضد كل ماهو أمامي: الأشجار، الورود، الكلب، العصافير؛ وأكثر من ذلك، ضد الأشياء؛ هذه الجدران، الأثاث، هذه الأواني المزخرفة، هذه الملابس المضبوبة في

الخزانة، والتي، ربما ستبقى على حالها. إنه الانتقام من أشياء محسوسة، ليس من الحياة الجديدة بأن تُعاش، بل من حياة الشظف. في عصر ذلك اليوم، بدا لي من البداهة والعدل أنه في اللحظة التي ستعيدُ للحياة رمقكَ الأخير، أن تنشقَّ الأرض هنا وتبتلع كلَّ شيء.

4

أتذكَّر ليلة قضيناها في الحديقة التي أتمشَّى فيها اليوم وحدي، وكم أتوه أحياناً بين الأماكن التي طالما تهرَّبت منها منذ موتك.

الوقت منتصف الليل. كنا آخر الخارجين من المسرح. الثلج يتساقط، ونحن نمشي متشابكي الأيدي. ولم تكن لدينا رغبة ولاحاجة للكلام. كنا نسير من غير تخطيط، لكنْ من دون ترددٍ أيضاً. كانت السيارات، على ندرتها، تجوب الشوارع ببطء ودون ضجيج. يخيَّلُ إليَّ بأن الشوارع كانت مُقْفَرة، أو لربما كان حبنا هو الذي عزلنا عن الآخرين في تلك السهرة. كنا لصيقَين بالليل والسماء، بعيدَيْن عن باريس.

ونحن خارجان من شارع ڤاڤان، اتجهنا نحو حديقة اللوكسمبورغ. قلتَ: «لو أننا ندخل؟»

تسلقنا السياج، ثم ولجنا مشهداً طبيعياً خالصاً. كانت أقدامنا تذرو الثلج، وكنا سعيدين وشاعرين بكينونتنا. إنها لسعادة خالصة، مستقرة، وليدة قناعة أكيدة بأن لاشيء أبداً يمكن أن يكون أفضل. خلعتُ معطفك، وجلسنا عليه. تبادلنا النظرات في العتمة، كنت أرى عينيك اللامعتين وأهدابك المبلّلة بالثلج، كانت المدينة تحيط بنا من وراء السياج، على بُعد خطوتين منا. انقضت ثلاث ساعات. لماذا فجأة فكرت بالمصيبة؟ ليس إزاءنا نحن، لأن أمراً كهذا كان يبدو تخيّله مستحيلاً بالنسبة لي في تلك اللحظة؛ وإنما بمصائب الآخرين. في تلك اللحظة بالذات ثمة أناس كانوا يموتون، وآخرون يَقْتلون، أزواج يمزّق بعضهم بعضاً، أطفال يبكون وحدتهم، رجال ونساء متمددون على أسرّتهم، يستعرضون حصاد يومهم البائس. وبعيداً جداً من هنا؛ في الهند الصينية، رجالٌ يذوقون سكرات الموت، أو يعذّبون. فمذ وُجدت الحياة، ليس ثمة لحظة واحدة تتوقف فيها لعبة الفرح والعذاب، الولادة والموت، ولابدَّ أنها ستستمر مادامت الحياة نفسها. لبثنا ساكنيَن، مغمورَين بالسعادة، أذرعنا متشابكة ورأسانا

متلاصقان. قال أحدنا: «إذا ما أصابنا سوء ذات يوم، سنحاول أن نكون لبقَين». أجاب الآخر: «أعدك بذلك».

مع بدايات ضجيج المدينة غادرنا، ولدى عودتنا لم نسعَ إلى النوم. أحببت تلك الليلة البيضاء، البيضاء كالثلج، والتي كانت من الروعة إلى حد لم أشأ أن أفوّت لحظة منها.



5

في بعض الأيام، أرتاب في نفسي، أعيش محترسةً. أعرف أن الدُّوار يترصدني. ينبغي عليَّ أن أبقى مشغولةً طوال الوقت. أكدُّ كالنملة. أكفُّ عن التفكير. والهدف: بلوغ اللحظة التالية، بعدئذٍ، ومن ساعة إلى أخرى، الوصول إلى مكان لم يعد محاصراً بالفراغ. غير أن الأذى مخاتل أحياناً، إذ عادةً يبدأ الصباح على مايرام. لقد اعتدت أن أعيش حياة مزدوجة. فأنا أفكِّر، أتكلم، أعمل، وفي الوقت نفسه أبقى مشغولةً بك. ولكن عند مستوىً معيَّن، يمثُل حضورك أمامي، شفَّافاً، ومشوشاً قليلاً، أشبهَ بالصور الملتقطة بدون تركيز. وفي هذه اللحظات لأعود أرتاب بنفسي، أترك نفسي عزلاء، يصير ألمي ساكناً مثل فرسٍ مروَّضة بإتقان فجأةً، وفي غضون ثانية، أؤخذ على حين غِرَّة. هاأنت. صوتك في أذني، يدك

على كتفي أو، خطوتك في المدخل. إنني تائهة، لاأقوى إلّا على الانطواء على نفسي، والانتظار ريثما تزول هذه الحالة.

في الجسد الساكن، تحتدم الأفكار مثل طائرةٍ مُصابةٍ تهوي كسهم. لا، أنت لست هنا، أنت هناك، في العدم الصقيعي. تُرى، ما الذي حدث؟ عبرَ أي صوتٍ، من أية رائحةٍ، من أي تداعي أفكارٍ غريبة تسرَّبت إلى داخلي؟

أشتبك معك، وأستمرُّ متحفزة الذهن لعلّي أستوعب أن هذا هو الأشدُّ فظاعةً، غير أنني، في هذه اللحظة بالتحديد، لاأتمتَّع بما يكفي من القوة كيما أجعلك تجتاحني. إمَّا أنا، وإمَّا أنت. لصمتِ الغرفة عويل يبزُّ أشدَّ أنواع الصراخ. وماهذا إلَّا بلبلة الذهن وهلع الجسد. أتأمَّل حالتنا في ماضٍ لاأستطيع تأبينه. صنوي (قسيمي) ينفصل عني ويكرِّر ماكنتُ أعمله في ذلك الوقت.

في أنحاء الشقَّة، كنت أتنقَّل من غرفة إلى أخرى كما لو أن شخصاً كان يمشي وحيداً، في باريس أو نيويورك، وهو على دراية بنهاية العالم الموشكة الحدوث. نهاية العالم: موتك. وفي الوقت نفسه كنتُ أختبر إلى أي مدىً يمكن للعالم أن يستمر بدونك.

مع ذلك، كنت أقوم بالأعمال الضرورية. ما السبيل لكي أكون مشابهة لتلك التي كُنْتُها من قبلُ؟ كنت أحدِّق في المرآة كما يليق بعروسٍ سعيدة صبيحة زفافها. لا، لاشيء كان يرتسم على وجهي. ربما سيطبعه الأسى لاحقاً، غير أنه لايزال، حتى الآن، يعبِّر عن السعادة الغابرة. نجحت في الاحتفاظ بهدوئي ولو أنك لن ترى شيئاً. كانت قسمات وجهي وابتسامتي كما هي تماماً، وكذلك تصرُّفاتي. أخذتُ حمَّامي، وتحادثنا من غرفةٍ لأخرى وكنت أغمض عينيَّ ليتسنَّى لي أن أسمعك على نحو أفضل. لم يسبق لي أن أصغيت لك على هذا النحو قط؛ علماً أنني كنت أعرف أن نبرة صوتك ستفلت من ذاكرتي ذات يوم. وربما سأنسى كيف قلت لي: «هل تتصورين أنه سيكون بوسعي الاستحمام في غضون خمسة عشر يوماً؟» اتصلتُ بالهاتف. وكرَّرت شكري لمن أرسلوا لك الورود. كنت أتحدَّث وكأن العملية قد تمَّت على نحو جيد. كتبتُ وإياك الردود على الرسائل المستعجلة، ونسختُها بعدئذٍ على الآلة الكاتبة وأنا أدير ظهري إليك كيما أتيح لوجهي بعض الراحة. سحبتُ بضعة شيكات، الأموال بدأت تنفذ... قلتَ:«سأستأنف العمل في آذار»، ثم أضفتَ: «إنني سعيد». وجاءتني صفعةٌ مباغِتة. تُرى،

هل كانت طعنة خنجر، أم أنها إحدى أجمل المداعبات؟ غدرتك بنظرة صريحة، تكذب عليك لأول مرة. كنتُ أقودك إلى شفا الهاوية، وكان يغبطني ذلك. كنت أشعر بالخزي، ولكنني كنت أفعل ذلك لأن شيئاً ما، أكثر قوةً وأكثر إلحاحاً من طعم الحقيقة التي كانت طاغية دوماً بالنسبة لي حتى ذلك الحين، كان يدفعني للقيام بذلك. نعم، في غضون شهر سنغادر من أجل الاستجمام. شاليه بشرفةٍ خشبيّة، مراغٌ من الثلج عند أقدامنا، الغابة خلفنا، والجبال تلمع تحت أشعّة الشمس. لكن لا، أبداً، أبداً، لن يحدث ذلك بعد اليوم. عشر مراتٍ في اليوم كنت آتي نحوك كي أعترف لك بالحقيقة؛ أردّد العبارة الأولى بيني وبيني، لأنني أعرف بأنك ستفهم مباشرةً: «ينبغي عليّ أن أخبرك»، أو «سنفترق»، أو «يُفْتَرى عليك». لماذا، بل بأيِّ حقٍ أخفي عنك مايهمُّك (يخصُّك)، لماذا أمضي بك غدراً إلى هناك حيث كان من الممكن أن تمضي بشجاعة؟ كنت أدرك بأنك كنتَ ستواجه. نظرتَ إليَّ قائلاً: «إنني على مايرام، أصبحتُ شغلِكِ الشاغل؛ إنني أشعر بحالةٍ جيدة، وليست بي أية آلام».

صَمَتُّ، بقيتُ ساكنةً عند قدميك، كانت يدك مشلوحةً عليَّ؛ كنت ألتقط أنفاسي، أتخيَّل ماكانت ستصير

إليه تلك اللحظات فيما لو كنت تكلمتُ: فكرة الموت كانت لصيقة بك حتى النهاية، أما أنا فكانت تنتابني رغبة الاستسلام المريع للبكاء بين ذراعيك والتحدُّث عن سعادتنا.

نظرتُ إلى ندبة جرحك. كنت تتلهّى بها.

- معدتي مفتوحة!

كنت أكره تلك الندبة، وكانت تسلبُ لُبّي. هنا، على مسافة سنتيمترين أو ثلاثة من شفتيَّ كان يعشعش السرطان الذي يوغل في قتلك والتغلُّب عليك بأسرع مايمكن، وكنتَ تجهل ذلك. كيف لم تكن ترى ماكنتُ أفكر به. كان وجهي يكذب عليك تماماً كما تكذب عليك ندبتك التي تنغلق على نفسها بسذاجة.

- إنه لشيء غريب، كما تعرفين، هذا الإحساس الناجم عن كون الصدر مفتوحاً.

- نعم، بكل تأكيد، فضلاً عن أنها أول عملية جراحية تُجرى لك.

- وستلقي برأسكِ على صدري ثانية حينما أتعافى؟

أومأتُ أن: «بلى» في حين أن ذلك لن يحدث ياحبيبي، ومن الأصح القول؛ عندما تصبح ميتاً. ابتسمت لكَ، هذا

ماكنتُ أفكّر فيه. وقد تمنّيت لو كانت لدي مَلَكَةُ الجهل، لو أوقف ذلك الذي لايتوقّف أبداً مادامت الحياة نفسها تعني الحركة. لا، إنها مجرد رغبة في التوهُّم، وهو الشيء الوحيد في نطاق سيطرتي؛ وفي سائر الأحوال، مادام الموت يعني الحرمان من الحياة، فأنت من كان سيكابده.

كنتَ تنظر إليّ بتلك الابتسامة المُتْعَبةِ، الآتية من بعيد، والتي تُقرَأ في عينيك كما على شفتيك. كانت عيناك عيني سقيم. بقزحيّةٍ شاحبةٍ نديّة، تتموّج ألوانها بين الأخضر والأصفر، أشبه بلون القصب الظامئ، وبياضها شبيهاً بعرق اللؤلؤ، كانت نظرتك تغيب أحياناً. مسكيني، يا حبيبي الجميل. هي ذي أيامنا تمضي كنهر السين، فيما كانت النهاية بالنسبة لك وشيكة. لو هزّة أرضيّة، لو طائرة تتحطّم، ينهار السطح؛ أي صدفةٍ رائعةٍ ستكون، لو أنها استطاعت أن تودي بنا في اللحظة نفسها، ونفقد معاً المستقبل؟

أحياناً كنت أتجه إلى النافذة، أنظر إلى البيوت، إلى المارّة، إلى السيارات المتراصفة؛ وفي كل مكان كنت أقرأ: سيموت ـ أقرأ هذا فقط.

تمددتُ عند قائمة السرير، ابتسمتُ لك، وكنت سعيدة حقاً في تلك اللحظة، إذ أنك كنتَ لاتزال هنا. كنت أجاهد

كي أعزلُ تلك الدقيقة، أجعلَ منها جزيرة في بحر الزمن، غير أن محاولتي باءت بالفشل، كانت بلا جدوى. كان الغد مُرتجاً، وكنت محاصرةً. كانت أفكاري الحاذقة ترتطم بالجدار نفسه: طريق بلا منفذ، بلا مخرج. كان المخرج هنا، وهو مايسمُّونه المحتوم.

كنتَ تنقضُّ على وجباتك انقضاضاً، في حين كنتُ أُكرِه نفسي على ابتلاع اللقمة.

«اللحمة قاسية جداً»، قلتَ ذات مساء، «إنها طازجة جداً».

طازجة جداً، يعني أنها مقتولة، ميتة للتو، تولَّدت لدي رغبة بالاقياء.



6

في باريس، قلّما تُرى السماء. إذ كنا نهتدي إليها كلّما غادرنا المدن. كان تعقُّب مسار النجوم والقمر يعني لي دائماً زيارة مهمّةً وسعيدةً إلى الكون الذي نحن جزء منه. وعندما أفترق عنك، كنتَ تحدِّد لي موعداً مع طلوع نجم، وكان يبدو لي وكأنني أرى خيط حبنا، خطاً مضيئاً، سهماً مخملياً، شعلةً من لهب تنبثق من كلٍ منا لتلتقي عند الجوزاء.

وأنا أتأمّل السماء ليلاً، كثيراً ماحدَّدت مساحة سعادتي أو حزني بحدَّةٍ أشد، وبصواب أكبر أيضاً، وغالباً ماعشت أجمل المشاعر تجاه المحيط العام والمكان الذي نمكث فيه، والعزلة، وكمال الحب، «... مخلصة كما الشمس للنهار،

كأنثى التُّرغُل لذكرها، كالحديد للمغناطيس، وكالأرض لمركزها». ذلك ماقاله ترويلوس لكريسيدا(*).

بعد موتك تجنبت السماء لشهور عديدة. ثم التقيتها من جديد في ليلة صيف، وبالتحديد في الليلة الثامنة والعشرين من شهر آب. تفحَّصت النجوم باحثةً بينها عن واحدةٍ مالبثت أن وجدتها في الحال. كانت تسبح متجهةً من الغرب إلى الشرق، وحيدةً ووديعة. لقد وُجِدت بفضل يد الإنسان وعقله، وقد أطلق عليها اسم «صدى 2» وبفضلها اقترنت ثانيةً بالليل. في تلك الأمسية لبثت في الخارج وقتاً طويلاً أترقَّب عودتها. وقد بدا أنني أحرزت انتصاراً. كنت أشعر بالخزي جرَّاء الحرب الجزائرية، وعمليات النفي والمحاكمات المزوَّرة؛ كما كنت فخورة بأنني أعيش اللحظة التي كان الإنسان فيها يجوب الفضاء لأول مرة. بيدَ أنني كنت هنا، ذراعاي شاغران (خالية الوفاض). أقبع على بُعد بضعة مئات من الأمتار ممَّا

(*) Troilus And Criseyde: عنوان قصيدة ملحمية كتبها تشوسر (1385م)، وهي أقدم قصيدة حب سايكولوجية في الأدب القصصي الانكليزي، تتألف من ثمانية آلاف بيت شعر، وترتبط أحداثها بحرب طروادة، ترويلوس هو ابن بريام ملك طروادة. وكريسيدا هي الأرملة، ابنة العرَّاف كالشاس. المرجع: دليل القارئ إلى الأدب العالمي - ط...2 ص532 .

تبقّى منك. أما أنت، فلن تتعرّف بعدُ أبداً على هذا العالم الذي بدأ يولَد. لم تعُد حياتنا تعنيك. لم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير بأنني كنت سأفضِّل الاختراع الأجمل والأكثر سلماً في العالم؛ اكتشاف الدواء الذي كان من الممكن أن يشفيك. كان إكليل الجبل يعبق برائحة زكيّة. بضعة كلاب تنبح، ومن الطريق، كانت تتناهى إلى سمعي حركة السيارات وضحكات ركابها الصاخبين. كلّما تراءت لي أسباب السعادة كان يعاودني الشعور بالانهيار، ولكن بفجائعيةٍ أكبر.

ينبغي عليّ أن أعترف أمام نفسي بأنها المرة الأولى التي يحدث أن تجتاحني فيها الذكريات؛ أستدعيها، ألتمس منها العون على الحياة، ثم أعود إلى نفسي لأُنقِّب في الماضي. أحياناً أحقد عليك لكونك ميتاً. لقد أقفرت، تركتني وبسببك لم أعد أحتمل السماوات الرمادية أو مزن تشرين الأول أو أوراق الخريف الأخيرة أو الأشجار العاتمة والعارية التي كنت ألمح فيها بِشارة الربيع. أهرب من الأسحار والأشفاق، وأستزيد من رؤية الشمس وضوء القمر. من قبلُ، كنت رزينةً ورشيقة؛ أصبحت ثقيلةً، أجرّ قدميّ بدلاً من الوثوب. كل شيء يثقل كاهلي.

لم أعد أفتّش عن وجهك في أي مطرح. خلال زمنٍ

طويل وأنت تنبثق من كل مكان. كيف يمكن أن يوجد ممرٌّ أو طريق أو رصيفٌ دون أن نكون قد عرفناه معاً؟ إذن كان لابدَّ أن أهرب أو أن أتصدَّى وحيدة لكل هذه الأمكنة. لم أكن أرى غيرك، سواء في الزُّحام أم في وحشة طريق الغابة. كان عقلي يرفض هذه السرابات، أمَّا قلبي فيجُدُّ في البحث عنها. كنتَ الغياب والحضور. وفي كل ساعة كنتُ أتساءل ليس فقط كيف أمكنني أن أعيش، بل ببساطة، كيف أمكن لقلبي أن يواصل نبضه بعد أن كفَّ قلبُك. أحياناً كنت أسمع من يقول بأنك حاضر بين ظهرانينا، وكنت أسلِّم بالأمر؛ فما جدوى الاعتراض؟ غير أني كنت أحدِّث نفسي أنه من السهل بالنسبة لبعض الناس أن يسلِّموا بموت الآخرين. فهل يبتغون من وراء ذلك الاطمئنان على خلودهم الشخصي؟

لقد أحببتك إلى الحد الذي لاأستطيع معه القبول بأن جسدك اختفى، وبأن روحك تكفي، وأنها تعيش. حسناً، ولكن كيف يمكن فصلهما والتوصُّل إلى القول: هذه روحُك، وهذا جسدُك؟ ثم؛ بسمتُك، نظرتك، مشيتك، صوتك، أكانت تلك مادةً أم روحاً؟ كلاهما معاً، دون أن يكونا قابلين للفصل مع ذلك.

أحياناً ألعبُ لعبةً مرعبة: أما كان ممكناً أن يُستأصَلَ جزءٌ منك، أو يُبتَر، دون أن تكفَّ عن أن تبقى هذا الإنسان الرائع

للذي أحببت؟ ولكن ماذا يعني ذلك الأثر، وأين ستكون النهاية؟ حينها قد أقول: لم أعد أعرفك.

بعضهم يقول لي، إن شدّة التعمق في معرفة الحب تقتله، أما الغموض فضروري له ضرورةَ الشمس للقمح، غير أن الغموض لا حاجة به أن يُزرع أبداً، وحمايته تكمن في التعرّف على هشاشته. تنبغي مهاجمته والسعي من أجل حلّه. فكلما بحرنا في عالم المعرفة، كلما تبيّنا بأن الغموض مستمر.

أنظر إليك وأنت نائم حيث ينحصر العالم بوجودك، البسمة على شفا شفتيك، رَمْش أهدابك الخفي، جسدك العاري المسترخي؛ كلها أشياء غامضة.

أسبح حولك في الماء الدافئ الرقراق، أنتظر ظهورك في إطار الباب، تحت نبتة الغليسين المتعرّشة. تقول لي: «صباح الخير» فأعرف ماكانت عليه أحلامُك، أفكارك الأولى وأنت على تخوم النوم؛ مع ذلك فأنت سرٌّ غامض.

نتحدّث: صوتك، أفكارُك، الكلمات التي تعبّر بها عن نفسك، مألوفة لي أكثر من أي شيء في العالم. كلٌّ منا بوسعه أن يُنهيَ الجملة التي بدأها الآخر. ومع ذلك، فأنت، بل كلانا سرٌّ غامض. حتى ابتسامة **الجوكندا** تنطوي على غموضٍ أقلَّ بكثير من غموضِ أيٍّ من حركاتك. يحدث أن

تمّحي كلُّ مسافة بيننا، وهي اللحظات الأروع التي تبعث على الاعتقاد بكمال العالم؛ إذ ذاك كنت أضبط نفسي متلبّسة برغبة الموت لكي يستمر هذا الكمال إلى الأبد. ولكن يبدو أن الإنسان لاينتحر إلّا في مواجهة الإخفاق؛ كما أن السعادة هي التي تحملنا على الحياة. أنا لاأعرف بالضبط، لكنني أدرك بأن ملامسة الكمال من شأنه أن يحثّنا دوماً على تجنّب الوقوع ثانيةً في أتون الصراع. لقد كنا من قبلُ آلهةً، ولانريد أن نعود بشراً مرةً أخرى.

الحب: هو منبع الحياة، عِلّة المنبع، خصب الحياة؛ إنه العجب، الشعور بالمجهول والمعلوم في وقتٍ واحد، عودةٌ إلى الفردوس المفقود، التوافق بين الجسد والفكر؛ إنه اكتشاف لنقاط ضعفنا وقوتنا، إنه محبّةُ الحياة، وعدم الاكتراث بالموت أيضاً، إنه ثقة بيّنة دوماً، بيد أنها متغيّرة وسيّالة بحيث أنه لابدَّ من تأكيدها كل يوم.

كنتَ عروتي الوثقى مع الحياة. وأصبحت معرفتي بالموت. وعندما سيحلُّ أجَلي، لن ينتابني شعور الالتحاق بك، بل شعورُ اتباعِ طريق مألوف، سبق لك أن اختبرته.

7

أعود إلى السماء التي أعشق النظر إليها. ليس ثمة أدنى أثر للزرقة. غيوم رمادية عاتمة تتسلّل من بين الأسطحة مثل جيش مهزوم.

شمس هذا اليوم أشبه بالسعادة، محجوبةٌ لكن موجودة. أبحث عن السماء اللازوردية، عن العصر الذهبي. ينبغي عليَّ أن أستنبط أسباباً جديدة للفرح. أن أصفو من جديد وأدحر العتمة، وأن أحتفظ بك في داخلي. إنني أتمرّن على هذا التوازن الجديد، ولاتكاد تمضي لحظة على تحقُّقه حتى يتلاشى. لاأدري لماذا أتشبّث بمواقفي أكثر فأكثر. أليس هذا هو الناموس القديم للكون: إمّا التكثيف وإما الاضمحلال؟

سيكون من الجبن أن أتخلّى عن دوري في الحياة، فأنا لاأفعل شيئاً سوى نشدان السلام. أستكشف نفسي وأنا أعبر حدائق اللوكسمبورغ هذا الصباح مثلما كنت أفعل فيما مضى عندما كنت أجوب الصحراء. كنت أنجح آنذاك في ترك ذكرياتي تتدفّق. كنتّ موجوداً في مكان ما يبعد آلاف الكيلومترات. ولكن لا الغياب ولا البعد كانا يعوقانني. كنا صوتين لإيقاع واحد، ولم يستطع شيء أن يحول دون ذلك. كان هنالك أنت، أنا، وهذه الـ «نحن» التي لم تكن تماماً محصلة أنت زائد أنا، إنما كانت لاتزال في طريق الولادة التي يُقدَّر لها أن تتجاوزنا وتحتوينا.

الصحراء تمنح الحرية للخيال أكثر مما يمنح أيُّ مشهدٍ طبيعي آخر، شجرةٌ على حافة الطريق، زوج من العصافير في السماء تنبئ عن وجود الحياة أكثر من وادٍ شديد الخضرة. كنت أحكي لك، أو تتشابك أيدينا ونحن نسير جنباً إلى جنبٍ دون كلام. وعندما يتلاشى حلمي وأجدني محرومةً من حضورك مرة أخرى، لم أكن لأعاني أي حزن من جرّاء ذلك. فأنت حضرت، وهانحن التقينا، وسوى ذلك لم يعد مهمّاً، حتى ذلك الوقت لم نكن قد توافقنا تماماً بعد، كان كل شيء لايزال قيد التأسيس.

كنتُ أصنع قدري، وكنتُ صنيعته. أشعر بالقوة، وأتخطى مشاعري كليّاً. كان طموحي أن أبقى صاحيةً، حاضرةَ الذهن، ومستعدّة لملاقاة أية واقعة. أعتبر نفسي خارج دائرة «الشقاء ـ السعادة». وكنت أجهل بأن السعادة بالذات هي التي كانت تمدّني بالثقة. فقد أتنفّسها بالبساطة التي أتنفّس فيها الهواء.



8

جاء أحد الممرّضين ليأخذه. سحبه من على السرير إلى العربة. تبادلنا النظرات. لم يُسمح لي بمرافقته. بقيتُ على عتبة الباب. كان الممرض يحجب جسده عني، وكنت أسمع وقع خطواته وتدحرجَ العربة، فيما كان يتراءى لي أنه لن يبلغ أبداً نهاية الممرّ الطويل اللمّاع.

فارقتُك توّاً، بنوع ما إلى الأبد. رؤيتي لك وأنت ملفوف بغطاء كانت لحظة سعادتي الأخيرة. بعد ذلك وفي أقل من ساعة التقيتك ثانية وأنت نائم؛ شعرك أشعث ووجهك شاحب. ماهو الزمن؟ هل هو تلك الساعة التي أشارت إلى مرور ساعة زمنيّة أخرى، أم هذه الشريحة الزمنية غير القابلة

للتراجع؟ لقد مادت الأرض. ملايين السنين باتت تفصل بين صورتك الأولى والثانية، كنتَ نائماً، ومع ذلك لم أجرؤ على النظر إليك. كنت أسترقُ النظر إليك خِلسةً وبشكلٍ خاطف. بقيتُ جامدة فيما الممرضات والأطباء يروحون ويجيئون، هم يؤدون عملهم وأنا أترجّى موتك. ليته يأتي سريعاً، كالصاعقة أو كلص. ألم يكن ذلك بدواعي الحب أيضاً؟ أن أكون مُهيّأةً بكل جوارحي من أجل أن تحيا، وبعد ساعة أخرى أبتغي موتك. قبل قليل توسّلتُ إليهم ألّا يوقظوك؛ فأين الخير وأين الشر في ذلك؟

كان الليل يمضي بطيئاً بطيئاً. وأنا أحدّق بالسقف وأخطُّ عليه وسواسي بينما كنت مستلقيةً على السرير.

سيموت، إنه سيموت.

كنت أواصل الصراع إلى أن أصير كتلة من الألم، أدحر العدوّ، ثم يسحقني، يخنقني، يجرجرني، وكنت أتحمّل ذلك. فالفكرة التي تسكن رأسي كانت تستغرقني، ومعها كنت أغوص إلى باطن الأرض. نعم، إنه سيموت. سيتعفّن. هذا ماتنبغي معرفته، هذا مايجب فهمه. لعلّ استدارة للرأس تسعفني. كان الجدار أبيض، لم يكن مكتوباً عليه شيءٌ بعد.

كان صفحة بيضاء؛ وأنا أرغب بصفحةٍ بيضاء كالأمس. أريد العودة إلى الوراء أربعاً وعشرين ساعة. استعدتُ كلَّ مافعلناه. ستُجرى لك عمليّةٌ جراحية. ها نحن وحدَنا في الغرفة. وفي الخارج، يروح الحدائقي ويجيء بهدوء. أقدامنا تتلامس ونحن على سريرك. يدُك اليمنى تتشبَّث بيدي اليسرى؛ ولايُفلِتُ أحدنا الآخر إلّا لقلب صفحات كتابينا. ياله من هدوء! أحياناً تكبو قليلاً ويميل رأسكَ نحوي. إنها الساعة الثالثة، بقي لنا ساعتان.

- بي رغبةٌ ألّا تكوني هنا عندما أنزل، لأن شكلي سيكون قبيحاً عندما يعيدونني من العملية وأكون بعدُ نائماً. فهل تعدينني بألّا تكوني هنا؟

- لا، بل سأبقى إلى جانبك، لن تكون قبيحاً. وسأنظر إليك عندما تكون نائماً.

- ولكن الأمر ليس سواءً في هذه الحال.

- حسناً، إذن أعدُك.

عاد الممرض وقد اصطحبكَ معه. كنت قد رتَّبت الغرفة. فتحت النافذة على مصراعيها. كانت السماء خفيضة، وكانت تثقِل عليَّ كصخرة صوان (أردواز) توجَّهت إلى قاعة الانتظار. استُدعيتُ. ارتقيتُ المصعد برفقة إحدى الممرضات.

فتحت الممرضة الباب ثم أدخلتني إلى غرفةٍ صغيرة لم أرَ فيها سوى بعض الكراسي، سمعتُ وقع خطوات، ثم دخل الأطباء الأربعة. قدَّم أحدهم لي كرسياً. وساد صمت. نظرتُ إليهم. أيُّهم الذي تكلَّم؟ أيُّهم الذي استمرَّ محدّقاً بي؟ كان ذلك كله قُبيل لزوم تفادي القدر وكبح الزمن. لم يعد ثمة جدران بيض. ففي كل ركن، على الطلاء المتقشِّر، على المصباح، على حبال الضوء المتسلِّلة من فوق الباب، في كل مكان كانت محفورة هذه الـ (سيموت).

كنتَ بجانبي في عالم عصيٍّ بلوغُه. كنتَ نائماً، أصبحتَ محكوماً بالموت، وكنتُ متواطئة مع الجلَّاد. لقد رُوي لي أنه عندما ينجو حيوان بحياته في المسلخ، يكلَّفُ بعد ذلك بتسليم أبناء جنسه إلى المذبح. فما الذي كان بوسعي فعلُه غير ذلك.

كان لدي مهلة حتى الصباح كيما أطلق العنان لنفسي وأحسم صراعاتي الداخلية وتردداتي. هنيهة ويطلع النهار. وكان لابدَّ أن أظهر أمامك بوجه أسيل. وقد أدركت دائماً أن القرارات الخطيرة تتَّخذ في غضون ثوانٍ. إذن سأمتثل لقانون واحد (وحيد): إما سعادتك وإما إيقافها بشكل نهائي ومباغت. بوسعي أن أصارع كل البراثن الخارجية كي أمنع أي خوفٍ أو ألم من التسلل إليك. ربما عند هذا الحد تتوقف

حدود قدرتي. كنت أرجو لو تستمر في التنعُّم بالفرح الذي كنا قد عشناه. بعدئذٍ، كنت سأطرح بعض الأسئلة على نفسي. لم أكن موزَّعةً بين الغريزة والعقل. فقد دخل الشقاء إلى حياتي، ومن خلاله رَشحتْ كل الأحاسيس والمشاعر. كان يشوِّهني. ربما أمكنني الاعتقاد ذات يوم، كما في السابق، بأن السعادة والشقاء لهما نصيب متماثل وبارز في الحياة، وأنه يتوجَّب عليَّ أن أكون مستعدة لتلقِّيهما على قدم المساواة. أليست هذه هي الحكمة بعينها؟

لقد نام على امتداد الليل وامتداد الصباح، وكان يستعيد وعيه للحظات قصيرة. كان ينظر إليَّ، لكنني لاأعرف ما إذا كان يراني حقاً، ثم يعود إلى النوم.

نظرتك الأولى، كانت تنبثق من عالمٍ آخر؛ أرادت أن تهرب منه وتتشبث بعالمي. خيانتي بدأت: «كل شيء على مايرام».

ابتسمتَ، رمشتَ جفنيك، ولامستَ يدي. ومنذ تلك اللحظة، وعلى عكس ماكنت تصورت، لم أكن بوضع حسن إلا حينما أكون بجانبك. كان نطاق العتمة يشتدُّ فوقنا، ولكنّ

مادمتَ هنا، وتبدو معافى ظاهرياً، وجاهلاً بما يجري، فإن ذلك كان يمنحني شعوراً بالأمان. كنت تقدم لي العون دون أن تعرف. وكانت سعادتك تكرِهني على التصنُّع. ولم يكن لدي لحظة واحدة كيما أختلي بنفسي وأتشاغل عن الدنيا. في كل لحظة كنت أنشطر. لقد قيلَ لي بأن الألم المبرِّح من شأنه أن يُفقِدَ الإحساس هذا ليس صحيحاً؛ فأنا لم يسبق لي قط أن بلغت هذه الدرجة من الشفافية التي أعيشها الآن. في تلك الأمسية غادرت إلى البيت، وقد تلقَّفتني صرخات طفولية ضاحكة.

قريباً جداً ستتلقَّى البراءةُ صفعة. هنا أيضاً، لم يسعني أن أفعل شيئاً. الطاولة المستديرة مع مكانكَ الفارغ. وسريرنا. ألم يكن ذلك يوحي بموتك؟ وماذا يهمُّ المكان؟ كان أمراً فظيعاً أنك لابدَّ ستموت. وسأكون وحيدة عمَّا قريب، ولم يكن قد شغلني ذلك بعد. الوحدة: يعني أن لاتَرى، يعني أن لاتُرى. عُدتُ إلى المشفى، وكنتَ تنتظرني كنتَ لاتزال على قيد الحياة، وستبقى إلى الغد بدون شك، وسنتبادل نظرات الصباح الأولى. كلمةٌ مروِّعة شارفت شفتيَّ: الانتفاع. سمعتها تجلجل لأول مرة. «الانتفاع» من الأيام المشمِسة الأخيرة. «الانتفاع» من الرواتب. يالها من كلمةٍ قبيحة، شرهةٍ، وبخيلة.

انتظرتُ إلى أن نمتَ، بعدها فقدتُ الوعي، ولأول مرة، ساقطة من الانهاك مثل دابّة.

استيقظتُ باكراً جداً في الصباح التالي. أصغيت إلى تنفّسك. ذات يوم لن يعود بوسعي سماعه. لم أكن أريد الغوص في المستنقع. «سيموت، سيموت، أردّدها في سرّي؛ غداً، أو في غضون خمسة عشر يوماً، ينبغي فهم ذلك جيداً فليس من مخرج سوى القدر». لاتخدعني. أنا أعرف. ثم أتناسى أنني أعرف، ثم أقوم بأعمالي الاعتيادية. لاتكبحني؛ فأنا أستيقظ، آخذ حمّامي، أنظّف أسناني، أنشغل بالأطفال الذين يذهبون إلى المدرسة.

بعد أن استيقظتَ أصبح كل شيء في غاية اليُسر: كنا اثنين. لم أكن أريد أن أفكر إلى أي زمنٍ سنبقى كذلك. كانت الثواني تبدو لي ساعاتٍ، والنهارات بضعَ لحظات. ماذا تساوي حياتنا، برمتها، قياساً بعمر الكون؟ تكاد تساوي ماتستغرقه تنهيدة. تلك هي محصلة الحيوات المتلاحقة للبشر، منذ أسلافنا ساكني الكهوف، الذين صاغوا التاريخ البشري. ستموتُ قريباً، وربما سأموت بعدك بوقتٍ قصير، وسنكون حينئذٍ مجرّد حلقةٍ صغيرة في سلسلة الكون.



9

في أحد الصباحات، وبعد انقضاء أربعة أيام على إجراء العملية، دخل أحد الممرضين واقترح عليك أن تتمشّى. نهضتَ على مرحلتين، ثم ألبستُك الخِف. لم يكن جسدُك معطّل الفعالية تماماً، وكنتَ تعومُ داخل بيجامتك. الممرض يسندك من جانب، وأنا من الجانب الآخر. تُرى هل كان الممرض يعرف شيئاً؟ وهل كان يعرف أنني أعرف؟ لم أكن أريد التواطؤ مع أي أحد. اتجهنا إلى النافذة أولاً كي ننظر إلى الحديقة.

قلتَ: «ستكون رجعتُنا الأولى إلى الريف جميلة». أوحيتُ لك بأن تعود إلى الفراش، لأنني تنبأت بما كنت تنوي القيام به، وفعلاً لم يخب حَدْسي. مشيت نحو بيت الخلاء ثم

نظرت إلى وجهك في المرآة، ليتني كنت أستطيع أن أجعل الرؤية خادعة! تفرّستَ في المرآة وأنت تخلّل خصلات شعرك بكفِّك، وهي عادتك المألوفة؛ وكان رأسك منحنياً قليلاً إلى الأمام، وعينك على أهبة اليقظة. تقدَّمتُ إلى قبالتك:

«لايمكن الادعاء بأن مظهرك على مايرام.

ـ حقاً لايمكن ذلك.

ـ لكن ذلك بسبب انتصاب جسدك؛ سأعطيك مرآتي، وعندما تصبح على السرير، سترى كيف تكون مورَّداً».

كان ذلك صحيحاً. فما إن تمدَّدتَ حتى تدفَّق الدم إلى وجهك، وبدوتَ مرتاحاً ماعدا عينيك الشاحبتين جداً، فكانتا تقلقاني.

عُدتَ إلى السرير.

كنت أنظر إليك مثلما كنت أفعل قبل خمسة عشر عاماً حينما كنا في مستهلِّ عشقنا وتعارفنا. نظرتي كانت عذراء، وقد بدا لي كأنني أراك لأول مرة. وكانت تصرفاتنا الأكثر طبيعية وبساطة، والمماثلة في روعتها لتلك الأكثر حميمية وجمالاً، كانت تعود ثانيةً إلى ذاكرتي بطعمها الأول الذي لن

يتكرَّر. كنت أعرف كل ذلك الذي أصبح الآن طيَّ الماضي. فقد لايُتاح لك أبداً أن تلقي ولو قطعة حطب في موقد الخشب، أو أن تحمل الأطفال على كتفيك. لكنني، حتى الآن، أستطيع أن أراك وأنت تقلب صفحات كتاب، أو تتلقَّف يدي، أو تكتب رسالة. غير أن كلَّ حركة من حركاتك تقريباً قد مسَّها المرض وترك فيها أثراً منه؛ فأنت تمشي بخطىً متثاقلة، منحنياً إلى الأمام قليلاً، تحلقُ لحيتك متوقفاً مرةً أو مرتين، تجلس على السرير باحتراس، متكئاً على ذراعيك.

أوه يا حبيبي! أليس ذلك بسبب الموت الوشيك إلى حدٍّ أن كل حركة من حركاتك كانت تنحى المنحى ذاته، ودون علمٍ منك؟ لا، بل أنا، بلا شك، التي كنت أعرف، وأنا التي كنت، بسبب ذلك، أراقب تلك الحركات بعيونٍ أخرى. نظرت إليك خلال السهرة وأنت نائم؛ وجهك يحتفظ بسكونه، غير أني كنت ألمح نبض الدم في عروق عنقك. فهل سيكون لك مثل هذا الوجه بعد الآن؟ في ذلك اليوم كنت لاتزال حيّاً، أي أننا كسبنا نهاراً آخر. تُرى، على أيٍّ هيئةٍ سيجيء الموت؟ أي نذير سيشي بقدومه؟ كنت أترصَّده، لكنني ولجتُ عالماً كنت أجهله. فهل سأُحسِن الفهم؟ كنتُ

أحجيتي (Sphinx)(*)، لكنك لم تكن تعرف طبيعة المعضلة التي طرحتَها عليّ. وكنتُ أتحرّاك دون أن تعرف ذلك. راقبتك وأنت تأكل بنَهَم، لم أتوصَّل إلى أن أميّز ما إذا كنت تفعل ذلك بشجاعة، أقصد برغبة، كيما تشفى بأقصى سرعة، بدافع خشيتك من الوهن الذي ربما كنت تعاينه، أم أن عنفوان شبابك كان يجعل منك ذئباً جائعاً، حتى وأنت على حافة الموت.

لم أكن أعرف ما إذا كنت ستغادر المشفى حيّاً. كثيراً ماكنت أنظر إلى تلك الجدران البيض التي دبَّت الرعب في قلبي. أتساءل ما إذا كان موتك سيأخذنا، هنا، على حين غرّة. لا، كنت آخذاً في التحسُّن، وفي صبيحةٍ ما، أُبلغنا بأنه يمكننا أن نغادر.

حزمت الحقيبة. كان الطقس جميلاً، ووقفنا عدة دقائق أمام النافذة. إنني امرأة يعزُّ عليها الدمع. لقد عادت الغرفة إلى الغموض الذي كان يلفُّها يوم قدِمنا، ماعدا وردة بلا أوراق كانت تسلّم روحها للموت في كأس المضمضة. لقد أصبح

(*) Sphinx كائن خرافي في الميثولوجيا اليونانية، له جسم أسد، وأجنحة، ورأس امرأة وصدرها.

بوسع المريض التالي أن يدخل. إذن كانت تلك حجرة القدر. تمنيتُ لو أنك تنام، لكن ذهنك كان يغصُّ بالمشاريع، وقد طلبتَ إليَّ أن أحكي لك ثانيةً كيف سيكون البيت الذي ربما نسكنه قريباً جداً في الجبال.

إنه يستقبل الشمس لحظة طلوعها، ويقع على تخوم الغابة... لن يكون بمقدورك التزلُّج، بيد أننا قد نستأجر زلَّاجةً ونلفُّ أنفسنا ببطانيات من الفِراء من شأنها أن تبعث الدفء فينا، وسنتنزَّه تحت الأشجار المكسوة بالثلج، ونتآلف مع السناجب الزرق. سنتناول وجباتنا على البلكون الخشبي، وفي المساء نراقب السماء والقرية وهما تضيئان في وقت واحد، ستأكلُ ستَّ مراتٍ في اليوم وتأخذ حمَّاماتك الشمسية.

جلستَ على السرير وساعدتك في ارتداء ملابسك. لبستَ الثياب نفسها التي كنت ترتديها يوم مجيئنا. سقط عنك البنطال عند الورك، ومرَّرت ثلاث أصابع بين قبَّة القميص وعنقك.

راقبتك وأنت تسير في الممر. اجتزتَ الباب، ثم توقَّفت لحظةً عند فسحة الدرج، تنفَّست عميقاً ورمشت عيناك أمام نور الشمس الطاغي. تذكرتُ الثور الذي يدخل المُصطَرَع. كنا أربعة داخل السيارة؛ أنت تجلس في الأمام، وأنا في المقعد

الخلفي. كنتُ أرى حيّزاً من مظهرك الجانبي. كم كانت باريس رائعةً، متغطرسة، ولطيفة. حاولت أن أستطلع عينيك وفرحتك المتعَبة، بيد أنني لم أكن أرى سوى قذالك المكسو بالشعر، والنحيل كشجيرة بتولا. وكان أشبه به عندما كان عمرك عشرين عاماً. في ذلك الحين، وعندما تكون ممتعضاً، كنت تنطلق أمامي منفرداً، تخبطُ العشب السامق بقضيب التقطته من الممر. وماهي إلا لحظة حتى كنت تعود أدراجك نحوي، وتحيط كتفيّ بذراعيك ثم ننفجر بالضحك سويةً. ولكن لم يكن جائزاً أن يحدث هذا الانفجار بالضحك قبل ذلك بدقيقة لأنك ستكون عند ذلك منطوياً على نفسك كمحارة. كل ذلك كان بعيداً عن هذه اللحظة، فقد كنا على الضفة الأخرى للطريق.

مدّدْت ذراعك إلى الخلف على مقعد السيارة، وهَزَزْتَ يدك لكي أداعبها. كم كنتَ نحيلاً وشاحباً. باريس. ياباريس! إلى أين كان أولئك الناس يمضون؟ ولماذا هم في عَجَلَةٍ إلى هذا الحد؟ كنت أشاهد الرقصة التعبيرية للمارّة والسيارات عند إشارات المرور الخضراء والحمراء، أشاهدها تسير بإيقاع منتظم، حريصةٍ على كل ثانية. لاوقتَ للتخيّل. كل شيء هنا كان متقن التنظيم. ذلك الرجل الذي كان يمشي هناك ربما يموت هذا المساء، أو قد يكون مُصاباً بمرض

دون علمه. وماذا يهم؟! مادام الموت دائماً على بابنا، المهم عدم معرفة ذلك. الجهل. المهم أن تتأمَّل نهر السين وهو يجري، والشمس وهي تلهو فوق الجسور، أن تكتفي بذلك، مُطلِقاً العنان لتأمُّلاتك، ألَّا يشغلك التفكير المُسبق بالسعادة ولا بالتعاسة، لابالماضي ولابالمستقبل، عِشْ لحظتك الراهنة.

كانت تلك رحلتنا الأخيرة، وزيارتك النهائية إلى الأمكنة التي كنا نحبها. لن يتسنَّى لنا لاحقاً أن نمشي معاً في باريس أبداً؛ لن نتذوَّق أبداً طعم العيش في بيتنا، ولن نجتاز، ولو مرة واحدة، تقاطع شارع باك أو ساحة سان ميشيل التي عبرناها هذا اليوم. تعود إلى ذاكرتي مئات الصباحات المشمسة حيث كنا نسير باتجاه مغاير. كنا نخرج من شارع بونابرت وينتابنا الشعورُ بالانبهار والزهو ذاته ونحن نستقبل جمال ضفاف نهر السين. كيف يمكنني أن أوصِّف لون السماء؛ فلا هو أزرق ولاأبيض ولارمادي ولاذهبي، وفي الحين ذاته ينطوي على شيء من ذلك كله، إضافة إلى ارتعاشات الضوء العذبة التي تصاحبه، وذلك اللمعان السندسي الذي يضفي على ذلك المشهد الحجري، وعلى أقواس القناطر والنهر، روعةً مستحقةً بكل جدارة، وملازمةً للروح والعقل.

كنا نسير والضفافَ حتى منطقة «تروكاديرو»، وأحياناً،

وعندما لانكون متأخرين، كنا نتوقّف لتأمّل هذه الروعة، هكذا على عجل، لأن نواميس الحياة في باريس تقتضي ألّا يتوقّف الناس بل يطوفون منتقلين من مكان إلى آخر عن قصدٍ مسبق دائماً، وليس بهدف التحرُّك إلى أي مكان لاعلى التعيين؛ أنوفهم مكشوفة للريح، والأيدي في الجيوب. وفي كل عام كنا نعلّل النفس بالتمتّع بالوقت الذي يسمّونه ظلماً، وقتاً ضائعاً، ولكن ما إن نكون هنا حتى تسرقنا الحياة من أنفسنا ونؤخذ في تلك الدوامة بحيث أن نزهةً طويلة على الأقدام كان من شأنها أن تستحيل إلى حدث أكثر ندرةً تقريباً من رحلةٍ كبيرة. هذا الإيقاع اللاإنساني لباريس كان يباعد بيننا أحياناً لأيام عديدة، لانُفلح خلالها في رؤية بعضنا أو التحدُّث فيما بيننا، كنا نخرج، نعود، نتصل هاتفياً، ننام. وخلال الوقت القصير الذي تكون فيه الاتصالات مقطوعة بيننا، كنا ندَّخر نشاطنا، لكننا كنا نعرف بأن الأحد التالي من شأنه أن يلم شملنا من جديد حتماً، وحينئذٍ سنحكي عن كل ماحمله لنا ذلك الأسبوع اللامتناهي؛ وعن انعكاسات ذلك على كلٍ منا بمفرده، وعمّا سمعناه، والانطباع الذي شكّله كلٌّ منا عن الآخر دون أن يوحي بذلك؛ مادمنا ـ كلانا ـ كنا نبدو مستَغرقين في مجرى الحياة اليومية. كنتُ أتمنّى أن تنتبه إلى كنزتي الجديدة التي كنت ارتديتها في الصباح للمرة

الأولى، لكنك لم تقل أية كلمةٍ عنها؛ مثلما كنتَ ترغب، بالمقابل، أن أكون قد قلت لك كم ستكون ربطة عنقك اليابانية أكثر ملاءمةً لقميصك الأبيض بدلاً من القميص الرمادي. لقد كان كل ماحوّشناه خلال سبعة أيام يعبِّر عن نفسه، ونحن نهزأ من أغنية جولييت كريسو: **أمقت أيام الآحاد.**

كنا نلتقي بعد تلك الفترة. كلٌّ منا يقتات بالآخر. ربما لن يعود هنالك من مواعيد بعد الآن؛ فالموعد الوحيد الذي وُعِدتُ به هو ذلك الذي كُنْتُه مع الموت، كنت أترصَّده على قسمات وجهك؛ ليته ينسحب قليلاً أو ينكمش؛ وكنت أحدِّث نفسي: هاهو، ماذا لو كنتَ مُعافىً وسعيداً بصورة فائقة، كنت أعتقد بأن ذلك ربما كان الأفضل قُبيل حدوث الموت الذي كنت قد سمعت الحديث عنه. أما وأني عاجزة عن فعل أي شيء، فكان لابدَّ من التوقُّف عن التفكير، والبقاء معك حتى رمقك الأخير، وهذا هو المهم. فها أنت ذا هنا، في السيارة، وهنا نحن متلامسان. بعد شهرٍ من الآن، قد أضحّي للعالم بكل شيء مقابل هذه اللحظة، مع أنها تبدو لي كالجحيم.

أردتَ أن تصعد الدرج بمفردك. تبعتُك. لاشك أنها كانت المرة الأخيرة التي تصعد فيها إلى بيتنا. سبق لك دائماً

أن كنت تقفز هذه الدرجات أربعةً أربعةً، كفهد، دون إحداثٍ أية ضجة؛ وفي المساءات، كان السكون الذي يعقب اصطفاق الباب الخارجي للمبنى هو الذي يبشّرني بعودتك، وماهي إلا ثانية حتى يعبث المفتاح في قفل بابنا.

في ذلك اليوم تبعتُك وأنا على أهبة الاستعداد لسقوطك. كنت أتمنى ألّا يمرّ أيٌّ من المستأجرين خلال الوقت اللانهائي الذي كنت تصعد فيه الدرج، ألّا يرى أحدٌ وجهك النحيل، المرعب، والمبلّل بالعرق، بينما كنتَ تتشبّث بالدرابزون الحلزوني الذي كان يكشفه لي ويخفيه. كنت أرى مِنْخَركَ الأيسر يرتجف وعضلات فكّك السفلي تتقلّص. كأننا نتسلّق برج بابل. لم يسبق قط أن بدا لي الدرج بهذا القدر من الطول؛ لقد بلغنا الضفّة الأولى للكون، ولاتزال بعدُ الضفّة الأخرى التي لابدّ من بلوغها، وهَلُمّ جرّاً حتى النهاية؛ فضلاً عن ذلك فإنني سأمضي إليها وحيدةً.

جلستَ على أول كرسي. أبقيت رأسَك منحنياً، ونظرَك مثبّتاً على ركبتيك حيث كانت يداك تستقران. وقع نظرانا معاً على خاتم الزواج الذي أصبح واسعاً على إصبعك، وقد خرج منها وأنت تفركه على بنطالك.

ماكانت غرفتنا إلا وردة؛ بيد أن الورود قد صارت،

بالنسبة لي، مسمّمة، كنت أعرف أنه في القريب العاجل ستُحملُ الورود إلى هنا أغماراً وأكاليل وباقات. وأنت؛ ستكون الشاب الميّت الموشّح بالورد.

هاقد عدتَ إلى بيتنا؛ وفي كل مساء كنت أفقد شجاعتي ثم أستجمعها وألبسك الثوب أو البدلة التي تريحك.

كان النهار ينطفئ. أسدلت الستائر. تمدّدت إلى جانبك متظاهرةً بالنوم، بينما كنت تقرأ. كنت أعيش وجهاً لوجه مع هذا الغول الفظيع. ماشكل السرطان؟ كتلة صلبة. بذلت جهداً لأستذكر أفلاماً علميّةً سبق لي أن شاهدتها، كنت في ذلك الوقت أتفحّص الحياة الناشطة لتلك الخلايا وتكاثرها الذي لاحصرَ له.

كانت تكسب المعارك كلّها. وكان ذلك كلّه يجري تحت نظري تقريباً، وتحت رعاية بشرتك الناعمة الساذجة. وفي صمت المساء كان يبدو لي وكأنني أسمع ذلك الدأب الحثيث والخفيّ لحشرةٍ أشبه بمصنعٍ بشعٍ يعمل أربعاً وعشرين ساعةً من أربعٍ وعشرين ساعةً (ليلَ نهار) بفعاليّة فائقة وبسرعة قصوى، لأن التربة صالحة وبِكر. وكان موتك يُحيكُ أحبولته برويّةٍ، ربما دون علم منك، بينما كنت أنظر إليك بلا حول ولاقوّة.



10

أتذكّر كيف كنا نرصد التصرفات الأولى لأطفالنا. كنت أحمل وعود الحياة مثلما تحملُ أنت اليوم وعود الموت.

أتذكّر ذلك الفجر الشتائي حيث كنت أرقد بينك وبين طفلنا، يالسعادة الروح والجسد! كنت أشبه بفقاعةٍ متوازنة داخل الحياة، ساكنة ظاهرياً، ليس بفعل العطالة، وإنما لأن لعبة القوى التي يُخيّل إلي أنني كنت في مركزها في هذه اللحظة، كانت تمارس دورها بصورة تامة. كنت أسبح في فضاءٍ لازوردي خالٍ من أية شائبة. لقد كانت حالة تناغم كاملة. الشقاء والموت اللذان سيحلّان ذات يوم كانا قصيين وخافتين، حيث لن يكون لهما أي تأثير ولن يستطيعا أبداً، ولابأي شكلٍ من الأشكال، أن يُفسِدا أو يعكّرا صفو هذا اليوم.

منذ لحظات، كائن جديد رأى الحياة. كنت أفتح عينيَّ قليلاً قليلاً لأتأكد فعلاً من أنني لست في حلم. كل شيء كان قد قُرِّر مسبقاً داخل هذا اللحم الحي وهذه التعرجات التي مالبثت أن باشرت سحرها لي. قد يكون بوسعنا أن نبذل قصارى جهدنا لمؤازرة تطور هذا الكائن البشري الجديد أو إعاقته؛ وأن نسعى، بأقصى سرعة، كي يجد نفسه مسؤولاً تجاه نفسه. ولكن أوليست المنعطفات والثورات ضرورية هي الأخرى. أوليس هنالك بشر تصقلهم العقبات، وآخرون يُهزَمون قبل خوض الصراع؟ وهذا الأمر بدوره، ألا يُقرَّر بصورة مسبقة؟ الآن بُتُّ أعرف أنني لاأستطيع أن أفعل شيئاً إزاء نظرة طفولية يطبعها الحنين، وأخرى هي الطمأنينة بحدِّ ذاتها وخالية من كل غش.

أغوص أبعدَ مايمكن في أعماق طفولتي، فأعثر على ذلك الميل نحو السعادة، هذا المفهوم الذي كان يحقُّ لي أن أعيشه، والذي كنت، بشكل أو بآخر، مسؤولة عنه. أتذكّر فتراتٍ زمنية طويلة، مُعتمة ورطبة، أو أتذكّرني وأنا بعدُ طفلة منطوية على نفسي، أسناني تصطك وأنا أكابد الحزن المصحوب بالخجل؛ وكنت أرجو الشفاء منه كما من مرض، مادام التمتُّع بالفرح كان يبدو لي أمراً عادلاً وجميلاً. بعد ذلك بزمن بعيد توصلت إلى أن طائفة واسعة منا تتميَّز بفهمها الخاص لفكرة

السعادة هذه، وكانت تشكّل أكثر من مجرّد عزاءٍ للروح والجسد.

اليوم أيضاً، أتمنّى أن أختبر هذه الفكرة، كما يبدو لي، من قبيل الإخلاص لنفسي، وبالتالي الإخلاص لك، أن أنشد المستحيل: أن أستيقظ سعيدةً ذات نهار، متحرّرة من كل عبء. إنني أعرف أن الأرض قد مادت، وبأن الجرح باقٍ، وهو جزء لايتجزّأ من جغرافيتي الجديدة؛ أعرف هذا، ومع ذلك أترجّى لو يكف عن النزيف.

يعزّ عليّ إلى الآن أن أعيش الحاضر، وقلّما أنخرط فيه من دون أن أعاني جرّاء ذلك. عندما كنا نتحدّث عن الموت، كنا نتصوّر بأن الشيء الأمَرّ من ذلك هو استمرار أحدنا على قيد الحياة دون الآخر. والآن لم أعد أعرف؛ أبحث عن الإجابة فأجدها تتغيّر تبعاً للأيام. فعندما تمسك نفحةُ الربيع بخِناقي، عندما أتأمّل حياة أطفالنا؛ كلّما لامستُ جمال الحياة، وخلال تمتُّعي به ولو للحظة، دون التفكير بكَ ـ لأنَّ غيابك لايدوم أكثر من حدود تلك اللحظة ـ أتذكّر أن من بيننا نحن الاثنين، أنت الضحيّة. في حين عندما أكون نهباً للألم، مستضعفةً ومهانة من قِبَله، أعترف بأننا كنا على صواب وبأن الموت لايعني شيئاً. إنني أتناقض مع نفسي دائماً. اريد، ولاأريد أن أعاني المزيد من غيابك. وعندما يتصاعد

الألم بقسوة بالغة، ويبدو لكأنه بلا نهاية ممكنة، ألتمس السكينة. ولكن كلما تركْتني أتذوّق طعم الراحة ولو قليلاً، أرفض أن أنسى عِشرتنا، أرفض أن أدع أيامنا الأخيرة ونظرتنا الأخيرة تمّحيان كُرمى لبعض هدوءٍ أو تعلّقٍ بالحياة يعاودني دون علم مني تقريباً. هكذا إذن، ودون أن أعرف طعم الراحة أبداً، أجذّني، دون توقُّف، متأرجحة بين حدَّين قبل أن أستعيد توازناً مهدَّداً دائماً بالخطر.

سوف يستمر الحال هكذا لوقتٍ طويل. أقبل به. لكنَّ تعباً فظيعاً يُثقِل كاهلي أحياناً، وتجتاحني غواية رهيبة؛ التماس الراحة، وإلقاء السلاح. في لحظاتٍ كهذه، أحبُّ الأرض، تستهويني فكرة الانغراس فيها، نصف خلدٍ (مرموط)(*) ونصف تمثال، دون أن يعتريني أدنى خوف. ولاألقي بالاً للتلف الذي يستبدُّ بي أحياناً، لأنني أعتبره تفتُّتاً طبيعياً لايثير أية مخاوف.

في اليوم الذي تلا عودتك من المشفى، استيقظتَ متأخراً. قلت لي: «كم أنا متعب!» أجبتُك أنه من غير الممكن أن يكون الأمر غير ذلك، فالجهد الناتج عن صعود الطوابق

(*) marmott نوع من الفئران الجبلية ينام طوال الشتاء منغرساً في التراب في جزئه السفلي.

كان شاقاً جداً بحيث كان لابدَّ من أن تستريح وتنام. بقينا ساكنين على السرير وشبه صامتين؛ كان كل منا يسرح مع أفكاره. كنت أتصوّر هذه الأفكار تحوّم في فضاء الغرفة، شأنها شأن سحابات الدخان التي تسبح فوق رؤوسنا، تحتكُّ وتتلامس، ولكن دون أن تتلاقح، ودون أن تتعارف.

كنا نسمع مقطوعة موسيقية تحبُّها، الموسيقا وحدَها، في مثل هذه الحال، يمكن أن يكون لها تأثيرها؛ تسكّن أو تثير، تغمُّ أو تبعث الهدوء، وفي هذا اليوم بالذات، سَمَحتْ لي باستعادة أنفاسي. أعادت انتظام النبض إلى قلبي الذي كانت قد طاردته عبارتُك الموجزة: «كم أنا متعب».

لاتحيرني، فليس هذا بعدُ الإنهاك الذي كان الطبيب قد تحدَّث عنه. إنه بالضبط التعب الناجم عن صعود هذه السلالم؛ بعد قليل سيتورَّد وجهك، وستطلب الطعام، وربما تجلس على السرير، وسيكون هذا يوماً إضافياً نكسبه من رحلة الأبدية. كان ينبغي عليَّ ألّا أوغل عميقاً جداً في تفكيري، ينبغي أن يمتدَّ إلى مابعد الظهيرة فقط دون أن يتعدّى ذلك، وألّا يتطلّب المزيد، وإلّا، على العكس، أن يشرف على الحياة مثلما تفعل هذه الموسيقا التي أسمعها، والتي تقول بأن لاشيء يتوقف أبداً، كل شيء يتبدَّل، وبأن الرقة أو الحب يجب أن يستمرا إلى مابعد الحياة. ولكن ما إن كنت أقارب صحواً

محتملاً حتى ينتابني الغيظ. كان الأمر في غاية البساطة. فأنا هنا الآن، أنا نفسي، أشعر أنني بحالةٍ حسنة، قوية، وقد أشهد ولادة الصيف القادم وترعرعَ أطفالنا. فكيف ستكون مواجهتي للموت؟ في الحقيقة هي المرة الوحيدة في حياتي التي كنت قد عشت فيها حالة الخطر. لم أجد ذلك أمراً بغيضاً، ولكنها ليست أيضاً سوى احتمال، وبالتالي فقد دخلتُ اللعبة، وقد راهنتُ بطريقة ما، مصحوبة، في الواقع، بلحظات قلق، راهنت، ولكن ليس أكثر من ذلك، لاشيء لايمكن قبوله. وهل كان تحمُّل المرء لما يقع عليه نفسه يتم بسهولة أكبر مما لو وقع على من يحبهم؟ لاأعرف. فاليوم لم يعد شيء قابلاً للمقارنة. فلو أنني قد عرفت بتوفر ولو فرصة واحدة لإنقاذك، لَكُنَّا تحدثنا بالأمر معاً، لكنّا حاولنا المستحيل، ولربما كنا نجحنا؟ «ليس ثمة أدنى أمل». هذا ماكان الأطباء قد صرَّحوا به، وقد عرفت بأنهم كانوا ينطقون بالحقيقة. كان يكفي أن يُفتح موجز خاص بطالب طب للاقتناع بذلك. فماذا لو كانوا قد أخفوا عني الحقيقة، ماذا لو أني بقيتُ ساذجةً مثلك؟ لا، حسناً فعلوا. فبين خيارَي الجهل والمعرفة، سأختار دائماً هذه الأخيرة. غير أني، والحالة هذه، لم أكن منسجمةً، مع نفسي؛ ففي حين كنت أطالبُ أن يتصرَّف الآخرون تجاهي بطريقة ما، كنت أتصرَّف تجاهك بشكل

مغاير. كنت أقوّض المساواة بيني وبينك. جعلت من نفسي الوصيّة عليك. تلك كانت الحقيقة. كنت أبتغي إسعادَك، وكان ذلك أقوى من كل شيء؛ وعندما كنتَ تقول لي: «إنني سعيد»، تصير تسويفاتي وافتراءاتي كلُّها حلوةً كالعسل. كنت على استعداد أن أجعل العالم بأسره يكذب كُرمى لابتسامةٍ تمنحها لي آنئذٍ، تلك الابتسامة العابرة التي كان بودي لو آخذها بين يديَّ، أواريها صدري؛ وهي التي لاتزال تلاحقني.

كنت أدرك أيضاً بأنك لو كنت قد خُيِّرت بين قدرٍ عاجل ومناسب وبين حياةٍ مديدة وبائسة، لما كنتَ ترددت. ولكن لماذا هذا الخيار بالذات؟ ألا يوجد صنفان من البشر، وأنت، ألم تكن تنتمي إلى ذلك الصنف الذي يخترق الحياة كنجمٍ يهوي في سماء صيف؟



11

إن تحليق إيكار دو بروغيل(*) في هاجرة القيظ هو الدليل الأكيد على العزلة، ليست عزلة حب الذات، بل العزلة الناتجة عن اللامبالاة التي تفرّق البشر بعضهم عن بعض. فذلك الفلّاح الذي استمر يحرث أرضه، فيما إيكار تقتله محاولته، كان محقّاً بلا شك. لأن الحياة يجب أن تستمر، وينبغي أن تُرَشّ البذور، وتُجنى المحاصيل خلال موت الآخرين. ولكن

(*) إيكاروس هو ابن ديدالوس، وهذا الأخير كان قد بنى متاهةً لملك جزيرة كريت الذي حبسه بدوره فيها مع ولده. ثم هرب السجينان طيراناً بعد أن اخترع ديدالوس لنفسه ولابنه أجنحة من شمع وريش. حلّق ايكاروس عالياً فسقط في البحر بعد أن أذابت الشمس جناحيه. المرجع: لاروس الصغير فرنسي فرنسي ـ 1946 .

كان يُؤمَلُ لو أنه ترك محراثه وهبَّ لنجدة جاره. لكنْ ربما أكون مخطئة، فعلى الأرجح أنه يجهل بأن رجلاً يُقتَل. وهو غير شاعرٍ بما حدث، شأنه في ذلك شأن البحر والسماء، شأن الروابي والصخور. إن إيكار يموت مغموراً وليس مخذولاً. وكلُّنا شبيه بهذا الفلاح. فكلَّما خرج أحدُنا، يصادف حالة يأسٍ أو معاناةٍ غامضة، غير أنه يتجاهل نظرات الاستجداء، وشقاء الروح والجسد. إن المسافة بيني وبين قريبي بعيدةٌ، ولو كنت قريبة منه حقاً، لتخلَّيت حتماً، ودون أدنى تردُّد، عما أنا منشغلة به وهرعت لنجدته.

لقد كنا نموذجاً عن إيكار. كانت الحياة مستمرةً في الخارج. أزحت الستائر وأخذت أستطلع الحياة الاعتيادية لشارعنا وساحتنا، لكنهما لم يوحيا لي بنمط الحياة ذاته. كل شيء كان قد تغيَّر وأصبح له مغزىً جديداً، كانت الأصوات تقرع أذني لكأنني لم أسمعها من قبلُ قط، وكانت الضحكات تتهادى إلى سمعي وكأنها آتية من عالم آخر، وفي كل صباح كان الصرير المديد لعربات القمامة المجرورة يُدَوِّي كإشارة تنفيذ الإعدام. فالمحكومُ بالإعدام يصيخ السمع عند كل مطلع فجر ليعرف ما إذا نُصبت له المقصلة. أما أنت فكنتَ تنام ملء جفنيك خلال الساعات الباكرة من الصباح بينما أكون أنا مستمرة في سهري، أعاني أكثر لحظات ضعفي

قسوةً. يأسٌ مما كان، ويأس مما قد يكون. فلا أنا قادرة على أن أفقد وعيي (يُغمى علي) ولاعازمة على مغادرة سريرنا. كانت النقطة الوحيدة المضيئة هي شعرك الذي كنت أميّزه على الوسادة البيضاء، وكنت أعرف بأن جسدك لايزال هنا. كنت أحسُّ بدفئك، وأحسست به صبيحة موتك. كنت تستريح بهدوء بينما كان الداء يحضّر لهجومه الأخير. وحينما أغلقت خلفي بابَ غرفتنا، لم أكن لأعرف أنها كانت المرة الأخيرة التي أراك فيها.

قُبيل الظهيرة سيُحكى عنك بصيغة الماضي الناقص: كان يحب، كان يريد، كان يعمل، كان يخاف. الماضي الناقص: فعل الموت. لاأعرف من الذي استخدم هذا الزمن أولاً، هل كان الأطباء، أم الأصدقاء الذين هرعوا إلينا، أم أنا. ربما أنا التي قلت: «كنت أعرف». كلّما سمعت أطفالي يستظهرون تصريف فعل الكون مع كل الأزمنة الدلالية، كنت أفكّر بهذا التحديد القاطع الذي عَنَاه الماضي الناقص ذات صباح. «هو كان»، تتضمَّن (تنطوي على) أنه لن يكون بعدُ أبداً. مُنْتهٍ. مُنْقَضٍ. إضربي رأسك بالجدران، اصرخي، ابقي مذهولةً، تصرَّفي وكأنَّ شيئاً لم يكن، عضّي، صلّي، اغتاظي، استسلمي... فلن تغيّري شيئاً. كان: يعني أنه لن يكون بعدُ. العالم بأسره، بما في ذلك أنتِ، لديكم كامل الحقّ، بل أنتم

مُلزَمون بالتحدُّث عنه في زمن الماضي الناقص. وها أنتم بدأتُم للتو باستخدام التصريف الذي سيكون من الآن فصاعداً من خصوصياته.

لم يعد ثمة حاجة للتحدُّث بصوتٍ خفيض مخافةَ إيقاظِك، فأنت بدأت رحيلك عن الحياة. كنتُ وحيدة. ربما لم أدرِ بعدُ كم سيكون مُحالاً، ليس أن أكون وحيدةً، بل أن أكون بدونك. مُذ رأيتك راقداً على عربة المشفى، فكرة كانت قد طغت على كل ماعداها، وهي التي كانت تحكم تصرفاتي: أن لاتتألَّم، أن لاتعرف. لقد انتهى دوري، وأنجزت هذه المهمة بكل تواضع. أما أنت فقد كان صحوُك أحدَ أميَز سجاياك، وقد كنت، قُدَّام الموت، أشبه بطفل.

كنت جميلاً، منحتَ إشراقتك الأخيرة. غداً، الآن، قد لاتكون كما كنتَ. نعم، كنتُ أعرف بأنك ماعدتَ حاضراً في هذا الجسد، ومع ذلك فإن قوةً ما، كانت تدفعني بقوة نحوه، لاأزال أستطيع أن أتأملك، أن آخذَ يدك أو أمرِّر يدي على وجهك. غداً، حتى أمر كهذا لن يكون مُتاحاً. غداً، ستكون موارىً في نعش؛ مرةً وإلى الأبد. بدأت أتخيَّل: وحيداً مع نفسك. وفي غضون يومين، سأسير خلفك بالسيارة، وبعد ثلاثة أيام سيكون الفراق نهائياً. هاقد مضى أقل من عشرين يوماً بين سعادتنا ونهايتك.

كنت أردِّد لنفسي: لقد مات، لقد مات، لقد مُتُّ. كان عليَّ أن أنطق بهذه الكلمات صراحةً، أن أتلقَّح بها إلى الأبد، وإلا كنتُ سأنهزم، أدير ظهري، أحاول الإنكار، غير أن هذا الإنكار ماكان ليؤول إلّا إلى المآزق. كان عددٌ لايُحصى من الصياصي (الصنارات) ينهشني من الداخل، وأنا مجرَّد صرخة.

كنت أبتغي ألّا يخذلني جسدي، بل أن يهبَّ لنجدتي. وكنت أتشبَّثُ بمقومات حياتي الداخلية. أُجبر نفسي على التأمُّل بالفراغ. الموت استولى على وجهك، وقد تفرَّستُ فيه وأنا شبه غارقةٍ بالتأمُّل. فوداع ميْت أمر لايمكن تخيُّله مالم يُعَشْ، كما لايمكن تقديره حقَّ قدره. التفكير يتوقَّف ما إن يبلغ حدود الرعب، وعند هذه اللحظة بالذات، يبدأ كل شيء.

لاأزال حتى اليوم غير قادرة على أن أفصلَ بين حياتينا: فالمسألة ليست شكل العلاقة بين لبلابةٍ وأي شجرة تخطر على بالي عندما أحاول أن أجعل غيابك محسوساً، إنها أشبه بخطيئة كبرى، شرٍ سيُحدث اختلالاً في قوى الجذب في العالم. عبثاً أحاول أن أعثر على موضعٍ يُشعِرني بوجودي.

يحدث لي أحياناً أن أعتاد غيابك. ولاأعود أنتبه إلى

ذلك المخرز الذي في جسدي، ولاإلى الصفارة الحادّة التي تخترق رأسي حتى تنفذ إلى عمق رقادي، تلك الصفّارة التي كانت تعلن لي، وتكرّر كل صباح، خبرَ موتك. من جديد استأنفتُ الاهتمام بحالة الطقس، بالكتاب الذي قرأت، بالأشياء التي كان عليّ أن أنجزها خلال النهار. منذ أشهر وأنا أتصوّر أنني ما إن أصبح قادرةً على استئناف الحديث بحماس حول أي موضوعٍ غيرك، أو على تركيز ذهني على طيفٍ آخرَ غير طيفك، حتى أكون قد نجوتُ بنفسي تقريباً.

هل يمكنني الافتراض بأنني على تلك الحال في هذا اليوم؟ لاأعرف عن ذلك شيئاً. فالماضي يستغرقني، أقدّم له كشفاً عن الحاضر (أجيّر الحاضر لخدمته). مع ذلك فإن عمل الحياة اليومي يواصل تأثيره عليّ. أعرف ذلك، وأريده؛ ولكن الشيء الذي أحسّه بوضوحٍ أكبر هو رتابة الأيام والسعي من أجل الانخراط بالحياة، في حين أن قلبي غالباً مايختار الغوص في بحر الماضي. إنني دائماً عرضةٌ للدّوار. فعندما أخرج في المساء أترك الإنارة مشتعلةً. وحينما أعود أرى بصيصه خلف الستائر، فأبتسم من محاولاتي العقيمة، لأنني ما إن أدفع الباب حتى تتلقاني الوحدة بكل سفورها. أفتح درفات الخزانة ثم أغلقها، أحرّك الزجاجات، أفتح صنابير الماء، لكنني لاأسمع سوى صمت غيابك. أصغي إليه، وماكان ليخيفني، بل

يفتتني. وليست بي أية رغبة في إيقافه. سيأتي النوم مثلما أتاني في مئات الليالي وأنا أصغي إلى صمت غيابك.

في بعض الأيام تفلت مني حقيقة وجودك. تُرى، هذه السعادة، وهذه الروعة، أما كانتا موجودتين من قبلُ؟ أما كانتا قُوْتَنا اليومي؟ إذ ذاك فإن تفكيري يرفض أن يَقَرَّ، يحلِّق في فضاء الماضي، يتفادى العقبات، يصير مهوِّماً بعيداً عن كل الأشياء الماديَّة. لم أعد أحظى إلّا بحلم وبقايا زُفات، هذه التي تهرب مني وأكتشفُ كيف تتوالد هذه الأمثلة(*) الرائعة، هذه الذكرى المُوْضية التي ترتسم شيئاً فشيئاً لتحلَّ محلَّ الحقيقة، هذا الخداع يتيسَّر بشكل أكبر، لاسيما حين لم يعد الحضور موجوداً كيما ينازع الصورة العذبة التي تتشكَّل في الذهن. أقاربُ صحواً مُزيَّفاً، لكنني أبتعد عن التعقُّل الحقيقي الذي يعني الحميَّة والذكاء وصفاء الذهن. أستحضركَ ثم أرتمي في الماضي كيلا أفقدك. والآن، وحيدة في غرفتنا، أبقى لحظات طويلة وأنا أحدِّد الأمكنة التي كنت تفضِّل إشغالها، والأشياء التي كنت تحب ملامستها؛ أفتِّش عن بصمةٍ من بصماتك، أستدرجُكَ من الظل، وتعود إليَّ تدريجياً. سأنطلق من ذكرى

(*) Idealisation (الأَمْثَلَة) = جعل الشيء مثالياً، والأمثلية Idealisme (مذهب فلسفي ينكر الوجود ويسلب الحقيقة عن كل مالم يكن تصوراً ذهنياً أو فكرة، ويُطلق عليه أحياناً اسم اللامادية. المنهل.

بعينها؛ من تلك الرقشة البارزة على الجدار... ذات صباح، وكان ذلك قبيل موتك بثلاثة أيام كانت الشمس قد طلعت، والسماء قد أمطرت منذ عدة أيام. أزحتُ الستائر، ثم قلتَ لي: «أرغبُ أن أحسَّ الشمس على وجهي». حرَّكتُ السرير قليلاً لكي تدركك الشمس؛ أغلقتَ عينيك لحظةً، وعندما فتحتهما همست: «يالها من روعة!».

كان الوقت يمضي بتثاقل شديد. أحضرتُ لك بياضاتٍ نظيفة، ثم اخترت البيجاما الزرقاء التي كنت ستموت وأنت تلبسها. الشمس تلهو على الجدار، لقد برحَتْكَ، برحتك هذه المرة إلى الأبد. في الصباح التالي أمطرت السماء مجدَّداً، وكذلك في الصباح الذي تلاه، وفي الصباح الثالث مُتَّ، لن أنسى أبداً لون شمس تشرين الثاني تلك، ولن أنسى كذلك كيف داعَبَتْ وجهك وشعرك قبل أن تنسلَّ منسحبةً عن الجدار كهارب. حتى تلك الشمس كنتُ أهاجمها. كان كل شيء يهرب.

كان الطقس جميلاً في إسكالا ونحن نقضي صيفنا الأخير. أية خططٍ كنا نصوغها آنئذٍ؟ وبماذا كان بمقدورنا أن نفكِّر؟

كنا نعيش حياةً نباتية. نمتثل للهواء والشمس فهما اللذان كانا يقرِّران نهاراتنا. تحولت أعمالنا اليومية إلى طقوس؛ لاجديد يحدث، ببساطة، كنا سعداء، وسعداء أيضاً لأننا كذلك. كانت السعادة تعبق فينا كأريج، وكنا ننساها أحياناً مادمنا ننعم بها. وهل يعرف العصفور أنه سعيد بطيرانه؟

كنا نلبث ساعات عديدة وعيوننا، مغلقةً أو نصف مغلقة، تُديم النظر في حركة البحر التي تكاد لاتُلحظ، خفقان قلب ليس إلّا. وكنا عندما يغلبنا الحرّ، ننساب في الماء، بشكلٍ موارب ودونما ضجيج، كيلا نعكّر صفو هذه اللوحة الكاملة التناسق للسماء والبحر.

كنا نستطيع ألّا نتحدَّث عن أيِّ شيء مثلما كان يمكننا التحدُّث عن كل شيء. فالصمت والثرثرة على حدٍ سواء يكونان شيِّقين حين نمارسهما كترفٍ رفيع نابعٍ عن الحب أو المودَّة، ولأنهما لايموِّهان على القلق أو الاختلاف العصبيّ على الحل، وإنما ينجمان عن توافقٍ عميق إلى حدٍّ أن كائنين متغايرين فيزيائياً، يتوصَّلان إلى تماثل أكثر لَفْتاً للانتباه من تماثل السمات الفيزيائية.

كان مظهرك يبدو مزعجاً أحياناً، وكنت ألاحظ ذلك

بشيءٍ من القلق الموجع، غير أنه لايلبث أن يزول. كنتَ تخرج في عِزِّ الحرِّ لاستصلاح الوادي المزروع بالصنوبريات المظلّيّة فيما كنتُ أصعد للقيلولة في الغرفة الكبيرة، حيث كنت أغلق نوافذها. الأطفال نائمون، وصمتٌ جميل كان يملأ البيت. كنت أتجاهل زيز الحصاد، ومع تلازم الحرِّ والأريج كنتُ أسمع ضربات معولك، وكذلك وقعَ خطواتك على الأشواك الجافة. وكنتَ تمضي ساعاتٍ في تكديس الحطب الذي سنوقده إثر المطرات الأولى، ثم تعود بعدئذٍ مبلّلاً بالعرق ومغطّى بنثرات الأغصان الصغيرة ومخدَّش الأطراف؛ ووجهك يشعُّ بالفرح. وفي بعض الأيام كنتَ تقود الجرَّار، فيما أنا ألعنُ رائحة الوقود والضجيج الجهنّمي الذي يصدر عنه، لكنك كنت تمضي بعيداً إلى الرابية الكبيرة، وهناك كنت تفتح طرقاتٍ في أمكنة مُستعصية، ويجتاحها العليق منذ مايقارب العشرين عاماً.

بعد الظهر بوقتٍ طويل، وحين تكون الشمس قد تجاوزت بيتنا، ولاتزال تلفح الرابية مع ذلك، كنا نخرج لاستطلاع المناطق التي كنتَ فتحتها منذ ساعاتٍ قليلة خلت. كنا نجلب من هناك أكواز الصنوبر، وأحياناً سلحفاة ليتسلّى بها أطفالنا. في كل يومٍ كنا نعاود الجلوس على جذع الشجرة

نفسه، ومن هناك كنا نرقب مسار الشمس وطريقتها المعهودة في التراجع من على شجرات الصنوبر ثم شجيرات الكرمة إلى أن تغوص في نهاية المطاف خلف الجبل. غالباً ماكنا نصطحب معنا الأطفال، لكننا عندما نرغب أن نكون وحدنا، كنا نخرج خلسةً؛ غير أن خططنا لم تكن تنجح دوماً، وفي هذه الحال لانلبث أن نرى شبحين صغيرين يهبطان المنحدر ثم يصعدان إلينا. وماهي إلّا دقيقة استراحة بين أحضاننا، وهو الوقت الكافي لاستعادة أنفاسهم، حتى نصبح مُلزَمين بأن نروي لهم حكاية. وكانت طريقتهما في التفكير تقودهما أحياناً إلى طرح أسئلة مُهِمَّة: «لماذا تكرِّر الشمس هذا الفعل يومياً؟» لقد أصبحا قابلين للتأثر بالجمال، فهما يتوقَّفان عن الكلام أو عن الإلحاح بأن يُتَحدَّث إليهما، كانا، مثلنا، يتأملان هذه الواقعة الرائعة ـ مغيب الشمس.

«حسناً، وماذا لو أن الشمس لم تعد تطلع؟»

ونجيبهما بأنها ستكون هنا في الصباح الباكر، قبل استيقاظهما، وستضيء، من جديد، المكان الذي نجلس فيه.

«وستكون قد تحرَّكت طوال الليل؟

ـ نعم، فهي لاتكفُّ عن الحركة مطلقاً، ونحن نتحرَّك

أيضاً، فعندما يكون عندنا ليل يكون نهارٌ في بلدان أخرى».

لاشيء أكثر خطورة من محادثات الأطفال، فهم يجرؤون على طرح الأسئلة الجوهريَّة، وعلى حلِّها أيضاً، وينفذُون إلى لبِّ الأشياء. غالباً ماكنا نتحدَّث معهم عن الموت. لم أكن أعرف أن موت أبيهم سرعان مايؤثِّر عليهم بهذا العمق. «إنها ميتةٌ، إنها نائمة» هكذا يقولون عن الجرادات أو العظايات التي كانوا يعثرون عليها أحياناً حول البيت. لم يكن ثمة مشكلة، ولكن كل شيء كان سيتغيَّر.

لقد تبيَّنوا بعد ذلك بعدَّة أشهر، ماذا تعني عبارة «إلى الأبد»، حيث أن أحدَ الطفلين، وهو الذي كانت معاناته أكبر لكونه يدرك مغزى ذلك أكثر من أخيه، كان يتكلَّم عنك قائلاً:

ـ مادام أنه قد مات، اجلبي لي واحداً آخر؛ أريده أن يكون شبهه.

حاولتُ التوضيح، ولكن ما الذي سأوضِّحه؟... بأن الحبَّ..

ـ ولكن لايمكن محبَّة ميت طالما أنه لن يُرى أبداً، جاءتني الإجابة. أين هو الآن إذن؟ وهل هو يرانا؟

ـ لا، أظن أنه لايرانا، إنما نحن الذين نراه في خاطرنا.

ـ أنا أشبهه بعينيه وفمه، أليس كذلك؟ قِيْلَت لي بِمُباهاة.

ـ وأنا أشبهه بكل حركاته.

ـ هذا صحيح.

ـ ولكن أين واريتِ جسده؟»

أجبتُ: «فوق الرابية»، لم يَسَعْني أن أقول: في المدفن. فقد كنت أتمنى أن تكونَ بلا نعش، وحيداً، هكذا، عند جذع إحدى شجراتنا، هنالك حيث كنا نفضِّل القيام بمشاويرنا. لماذا شعائر الموت عندنا حِداديَّةٌ إلى هذه الدرجة، ويعوزها الكثير من الفطرية؟ فالمآتم التي تُمارَسُ على ضفاف الغانج لم تكن لتُلغي الحزن الذي يعتمل في النفوس، مع أنها لاتولي اهتماماً للمظاهر الخارجية. كنت أتمنّى أن يحتفظ أطفالنا منك بطيفٍ وضّاء لكي لاتمسُّهم مطلقاً فكرة تعفُّن لحمك، التي ظلّت تلاحقني شهوراً عديدة. لم يكن بمستطاعي أبداً أن أسلّم بأن رقّتك وجمالك قد يكونان مثار اشمئزاز؛ كنت تتبّعت تحلُّلَ جسدك خطوة بخطوة، وقد لازمني ذلك كوسواس. كنت أقول لنفسي بأن ذلك ليس مُهمّاً مادمتَ لاتشعر به، ومادام ظاهرة كيميائية. مع ذلك كنت أتخيَّلُ جسدك، عينيك، شفتيك، نسيجَ بدلتك؛ وعندما كان يُقال

أمامي لطفلٍ مذعورٍ من دبُّور أو ذبابة: «الحشرات الصغيرة لاتأكل الحشرات الكبيرة»، كنت أفكّر: بلى، إنها تأكلها، بكل تأكيد تأكلها حتى آخر لقمة. نعم، كنت أصرُّ أن أحتفظ بذلك لنفسي، كما أنني لم أكن بعد مقتنعةً بأن أقول لهم إنك في السماء، مادامت طريقتنا في التفكير كانت غير ذلك. وانطلاقاً من هذا فقد كنت أسعى أن أربطك بالحياة، فأقول؛ لقد تحوَّل، استحال إلى شجرتين وبضع أزهار؛ والنحلات تجني الرحيق منها لتصنع العسل الذي نأكله في العادة، ويبدأ كل شيء من جديد.

تفاعل كلٌّ من الطفلين مع الأمر على سجيَّته.

- سيصير زهرات جميلة، لأنه كان جميلاً، قال لي أحد الطفلين ببشاشة.

وقف الآخر متأملاً بصمت. وفي اليوم التالي جاء إليَّ:

- يعني، في النتيجة، أننا عندما نأكل عسلاً فإنما نأكل شيئاً من الإنسان.

كنت أريدهما أن يحبانك كما كنت تماماً. تُرى، كيف يريانك في ذاكرتيهما؟ إنهما يتحدَّثان لي باستمرار عن نزهةٍ بعينها، قلَّما تحدَّثت لهم عنها، تلك النزهة التي لاتزال محفورة في ذهنيهما. ففي ذلك اليوم بالتحديد كنتَ قد

قتلت أفعى صغيرة. يومئذٍ لم يكن قد بدا عليهما أنهما أعارا انتباهاً خاصاً للأمر، غير أن تلك النزهة التي كانت على مسافة مئتي متر من البيت صيَّراها إلى مغامرة استطعت خلالها أن تقهر ثعباناً خطيراً جداً. صرتَ رمزاً للشجاعة والبراعة؛ وحتى حين أحدِّثهما عن رحلاتٍ أُخَر أطول، وأكثر استثنائية، يعودان دوماً إلى تلك الرحلة - إياها.

ينقِّبان عنك، يحاولان التعرُّف عليك أو تمييزك من خلال ذكرياتهما، الحقيقية منها أو تلك التي يصنعانها في ذهنيهما، ومن خلال صورك الفوتوغرافية ومايُحكى عنك، استذكارات ضبابيّة تنبثق مشوَّشة من أعماقهما، لكنها تتوضَّح أحياناً أمامي لأن شيئاً مايلفت انتباههما بشكلٍ مفاجئ، يرشدهما، ويمنحهما الرغبة في البحث في ذاكرتيهما اليافعتين، والتدقيق في ذلك الذي لم يكن سوى شكل، تصوُّر غامض؛ يتفحَّصان، مثل المصوِّر الفوتوغرافي الذي يتحكَّم بضابطة القطر لآلة التصوير بغيةَ اتضاح اللقطة المُرادة. يصعب أن يتلاقيا دون المرور بسيرتِك.

ألتقط لديهما بعض التصرُّفات المشابهة لتصرفاتك التي تسحرني وتشوشني؛ والتي غالباً ماتكون عابرة وتنتقل من واحدٍ إلى آخر. حركة ما، لاعلى التعيين، كيفية ربط الحذاء، محبَّةُ أوقات بعينها، لقطات سماوية بذاتها، الاستيقاظ

الصباحي، نظرة ما لم يسبق لي أن لاحظتها، على الرغم من إمكانية وجودها من قبل، لكنها تبدو لي أنها وُلِدت للتو. أصغي ثم أتأمَّل.

أعود إلى مجرى الحياة، وأصوغك في سنٍ لم أكن قد عرفتك فيها. أجاهد كي أدمج الصور التي يقدِّمونها لي مع تلك التي كان عمرك فيها عشرون عاماً، وهكذا أتوصَّل إلى تعرُّف ناجز عنك.

أكتب كما لو أنني أكرُّ كتلة خيوط ليس لها نهاية. الخيط الذي أسحبه يقودني إليك، أراوح في متاهة، أتبع الخطوط الحلزونية للصّدَفة. أحاول الوصول إلى كنه ذاتينا معاً؛ وما إن يُخيَّل إليَّ بأنني بلغته حتى أكتشف بأنها لم تكن سوى مرحلة، وبأنه لابدَّ من المضي إلى مابعد ذلك أيضاً، ولابدَّ من تجْواب فضاءات الذاكرة والمشاعر، ومن تحرير نفسي من أطواقها مرةً تلو الأخرى، بذلك فقط سيُقيَّض لي ولوج العالم الذي أهجس به وأتوق إليه. إنني وحيدة في مكابدة نجاحاتي وإخفاقاتي. أشعر أحياناً بأنني أتقدَّم فينتابني شعور بالرضى عن النفس؛ ولكن فجأة يتلاشى كل شيء؛ لم يعد ثمة عمود فقري، ولالحم حي، إنما أسيدٌ أحرقَ الأخضر واليابس؛ انقطع

الخيط، صرتُ أثراً بعد عين، حيث بقية أعصاب تتوتر دون جدوى.

الصراع خطوةً خطوة أصبح غير ذي نفع؛ لابدَّ من القيام بمناورة، تلك التي يسمُّونها التشاغل والتي ترعبني عادةً. أخرج وأتمشَّى، غير آبهة بشيء، هاربةً حتى من نفسي. بي حاجة أن أتنسَّم الهواء على وجهي، أن أشعر بصلابة الأرض تحت قدميَّ. أن أنسى كل شيء، ألجأ إلى العزلة. وعندما أشعر بالتعب أكون على وشك النجاة. إنني أعيش. أعود إلى الأرض. هاأنا مذهولة من إيجاد كل شيء في مكانه من جديد.



12

في هذا اليوم، منذ الصباح الباكر، فُتح الباب على مصراعيه، طِوالَ يومٍ ونصف اليوم وأنا أجري خلفك. أحتفظ بذكرى طريق لامفرّ منه، قرى عبرناها، سيارات تجاوزناها ونحن خلفك دائماً، متتبّعين تلك العربة السوداء المكلّلة بالورود، والتي كنت أرفض أن تغيب عن ناظري. كنت غير عابئةٍ بشيء تقريباً، حتى أنني في هذه المرّة لم ألق بالاً للمنحدر الهابط نحو /ميدي/، بُعيد /ليون/ حيث تظهر شجرات السرو الأولى والنوافير الأولى التي تحيط بها أشجار الدلب. في ذلك الوقت كانت السماء تتغيّر والريح تشتد، وحتى لو أمطرت فلن تكون المطرة ذاتها. وفي كل مرة كنا نجد أنفسنا مبهورين ومذهولين بالقدر نفسه من حالتنا تلك.

من ذلك السباق المحموم أحتفظ بذكرى، محدَّدة ووهمية في الحين ذاته. توقَّفت السيارة السوداء عند محطة وقود، وانتظرنا خلفها دون مبرِّر منطقي، إنما لمجرَّد ألَّا نتركك، في حين أنك كنتَ قد رحلت بعيداً، معانياً من ذلك الجهد المديد الذي تعرَّض له جسدك. وفي المساء توقَّفت رحلتنا. أُوْدِعتَ «في الكراج» لقد طفتُ حواليك غير عارفةٍ ماذا أفعل، ولامصممة على الذهاب إلى النوم. داعبتُ وردة، وضعتُ يدي على الغطاء الأسود الذي يتَّشح به نعشك، لامستُ هيكل العربة. كنتُ أدور في دوَّامة. وعبثاً كان ذلك كله: أنت هنالك في الكراج، وأنا هنا - في الأعلى - متكوِّمة على سرير فاتر؛ أو أنت في ساحة وقوف السيارة، وقت الإفطار. كنتُ أتناولِ طعامي، أشرب، وليست بي أي رغبة في البكاء. لم أكن أفكِّر بالمستقبل، ولاحتى بالطفلين اللذيْن لم يخطرا ببالي منذ يومين، واللَّذيْن أسرَّا لي لاحقاً كم كانا مستمتعين عند أصدقائهما الصغار.

في اليوم الثاني، وصلنا إلى المقبرة. وهناك انتُزِعت من الوهم. أخذت أمعن النظر في البحر القصيِّ، الرمادي كالسماء. أتذكَّر أصوات ارتطام الورود وهي تُرمى فوق الخشب، كانت أصواتاً مكتومة، بيد أنها كانت ترتدُّ في داخلي على شكل موجاتٍ متتالية؛ ثم بعد لحظات، ضجَّة

رفشٍ مخنوقة، حفنة التراب الأُولى التي بدأت عنيفة ثم انتهت في غاية الرقَّة وهي تتدحرج على الخشب قبل أن تجد مستقرَّها النهائي في آخر المطاف. كنا وحيدَين في هذا العالم؛ أنت مسجىً، وأنا منتصبة. كانت نظرتي تخترق الخشب والرصاص. كنت سأهِبُ كل شيء في الدنيا، أؤكِّد، كلَّ شيء، لِقَاء أن أراك تنبثق، حيّاً، أتنزَّه معك فوق الرابية مثلما اعتدنا أن نفعل، أو نبقى ساكتَين ونحن نتأمَّلُ البحر. عشر دقائق فقط ولْيكُن بعدها الموت، والعذاب، وليكن مايكون، سِيَّان عندي؛ لمجرَّد أن أراك مرةً ثانية.

كانت المرَّة الأولى في حياتي التي كنت قد طلبت فيها المُحال. فيما بعد طلب مني أحدُ أطفالي: «أنتِ القادرة على كل شيء؛ اعملي كي يعود ليومْ، يومٌ واحدٌ لاأكثر، سيكون عندنا عيد، وسنكون عقلاء، وسيرى كم نحن سعداء». وجدتُني مُلزَمةً بتوضيح عدم قدرتي، فأدركت بأن طفلي قد اكتشف المغزى من «إلى الأبد»، وبأنه مثلي، دون شك، عاجز عن تحمُّلِ ذلك.

ديمةٌ ناعمة بدأت تهطل، والساعة أعلنت منتصف النهار. ليس ثمة هبَّة ريح. كانت حبَّات المطر تستقر بهدوء على أوراق الشجر، وكذلك على الحائط الحجري حيث كانت تخطُّ آثاراً قاتمة. التراب غطَّى التابوت تدريجياً وخلال

وقت قصير لم يعد هنالك أية فجوة، بل كثيب من التراب وكدسة ورد.

الآن أعرف ماذا تعني المقبرة مثلما يعرف آخرون ما الذي تعنيه اللوحات المعدنية المنتشرة في شوارع باريس، منذ عهد الاحتلال، والتي تشهد على أن عضواً في المقاومة كان قد تجندل هنا، وأن هنالك وجهاً قد شوَّهَه الرصاص، بركةَ دمٍ، جسداً صريعاً.

في اللحظة التي وطئت فيها قدماي رصيف محطة باريس، وهي المحطة التي كنا نأتي إليها لدى عودتنا من العطلة (حيث كنا ندخل برنامج الشتاء فوراً، هاجرين الصيف، دون أن نندم على كوننا سنمنح أنفسنا للزمن القادم)، وعلى وجه التحديد عندما كنتُ في الخطوة التي تفصل مابين الدرجات القليلة لسلّم المقطورة والرصيف، وما إن مالَ جسدي نحو الرصيف حتى تأكدت، دفعةً واحدة، بأن الوحدةَ آتيةٌ لامحالة، صريحةً وحقيقيةً كشفرة مقصلة.

كان الإعصار قد انقضى، وخرجت منه حيّةً، كنت أترقّب المواجهة، ولم أكن أعرف بعدُ على أي شكلٍ ستأتي. بدأتُ خطواتي الأولى في عالمٍ لم يكن لدي الوقت ولا الميل لتشكيل تصوُّرٍ مُسبق عنه. أيُّ صمت يقبع في سكينة هذه الشقة! المحتويات ماتزال تجثم في مكانها، الموكيت نظيف،

الوسائد منفوخة لكأنها لم تُستخدم من قبل قط، الورود نضِرة، الكتب الأخيرة التي كنا قرأناها ماتزال قرب السرير في متناول اليد. وحدها هذه الشريحة من الماضي القريب هي التي لجت: أربعة أيام؛ وبعيداً جداً، بَدْءُ هذا الماضي، يوم إجراء العملية، المحصّلة واحد وعشرون يوماً، وفيما وراء الجحيم، على الضفة الأخرى، كان وجودنا.

انتهى، انتهى مرةً وإلى الأبد. أمواج الزمن تتلاطم؛ إمّا الغرق وإمّا النجاة، غير أني لم أكن أبتغي هذا ولاذاك، كنت أرفض هذه المفاضلة كانت الحياة تتصرّف إزائي كطاغية: «سواء عشتِ أم متِّ، قالت لي الحياة، فأنا باقية في مكاني. أنتِ ترفضين أن تأكلي أو أن تنامي، تريدين أن تحملي وجه الهزيمة». كانت الحياة تحملني على الخطأ. لم أكن جبانةً، ولاشجاعة. طفلاي يتعاملان معي كوصيين؛ فعندما يكونان هنا، أقوى على المقاومة، لأن براءتهما تقدِّم لي العون مثلما كانت براءتك تفعل حتى وقتٍ قريب. كنت مجرّد واجهة، ولولا تلك البراءة لكنت منهارة في ظرف ساعاتٍ قليلة. سبق لي أن خبرت السكون الذي ليس سوى فاتحة للموت. أنام، أفقد الوعي، أغوص في العتمة؛ ولكن ما إن أغمض عَيْنَيَّ حتى يطغى نورٌ مُعْمٍ تحت أجفاني. كنت أتعوّد الوحدة، ضاريةً دون معارك، بمظهرها الأملس اللمّاع، تبدأ منكَ وتمتد

حتى الأفق؛ لا البصر ولاالبصيرة بقادرين على الإحاطة بما هي عليه. لم أكن أعرف ماذا أفعل بنهاراتي ولاأين أركّز ذهني. لقد مَحَقتني، كنتَ ملازماً لوجهي، تخنقني، وكانت هواجسي بأسرها مرهونةً بمرضك. كنت أبتغي الاهتداء إلى ماكان يشكّل جوهر حياتنا، فأعماني موتُك. ولم أستطع منه فكاكاً. كان يُفترَض بي أن أثبّت قدمي في مواجهة تلك الأبواب الموصَدة، ولكن الساعات كانت تمضي، وكذلك الأيام، دون أن أقوى على فعل شيء. كنت أكرِه نفسي على القيام بالأعمال التي في المُتناوَل، ولاأتفوّه إلا بما يُطلبُ إليّ. صرت مكاناً خاليَ الغرض.

مازلت لاأجرؤ على سماع الموسيقا، خائفة من أن تفرّغني من خدري وتلقي بي في عالم قد أعجز عن تحمُّل حدّته المفرطة. تركت نفسي على الحياد، جاهلةً إلى أي جهة سأجنح، غير عارفة إن كنت سأغرق أم سأنجو. كانت غريزتي تُملي عليّ الإيقاع وأنا أسير على هَدْيه. ألعن الليل، غير أني لم أكن أستطيع الإفلات منه.. أحرص دائماً على قدْرٍ من الصحو يكفي لتنبيهي بأنه لايمكن الإدعاء، دون خزي، بأنني قد تجاوزت حداً لم يتم بلوغه بعد، كم مرةً سمعنا الغني يقول بأن النقود لاتصنع السعادة، والكسول يزعم بأن كلّ عملٍ هو هدرٌ للوقت، والجاهل يؤكد بأن الثقافة لاتخلق الإنسان،

والنساء الوانيات(*) يتفاخرنَ بتخطِّيهن الحب الشهواني (الجسدي)، والعنينين(**) يقولون بأن الحبَّ العذري هو الأجمل؟ إن ذلك لخيانة قصدية ومحكمة من شأنها مفاقمة التشوُّش. صحيح أن النقود لاتصنع السعادة، وصحيح أن العمل قد ينطوي على شكلٍ من أشكال الهروب، وليس بالضرورة أن يكون المثقَّف هو الأفضل، وصحيح أيضاً أن الحب ليس جسدياً وحسب.

بالنسبة لي أعتبر ذلك ملامسةً، في العمق، لما يُسمى اليأس، الشيء الذي نجحت في اتقائه بشيء من الانسجام مع ذاتي. وفيما إذا تبقّى سبيلٌ ما، مفتوحاً أمامي، فسيكون محفوفاً بالأشباح والسُواخ(***).

بُغيةَ الاهتداء إلى ذلك السبيل، كان لابدَّ من اجتياز الطريق الجهنَّمية التي مَوْضعني فيها موتُك، وألَّا أسعى إلى التشاغل، فلا مجال للارتهان للخمول؛ لامهربَ، لابدَّ لي من قبول الشقاء مثلما سبق لي أن قبلت السعادة.

كنتُ أدوِّم في أنحاء الشقة، مُحاطةً بمحتوياتها، ومشحونة بالإضطراب الذي لم تكن تلك المحتويات سوى

(*) المرأة الوانية: الباردة جنسياً.

(**) العنِّين: الرجل العاجز جنسياً.

(***) السُواخ: الطين الكثير، الذي تغوص فيه الأقدام.

سبب تافه له. فما الذي أفعله بفرشاة أسنان، بمكَنَة حلاقة، بماء الكولونيا، بكنزة؛ إنها أشياء صارت، من الآن فصاعداً، عديمة الفائدة؟ أأحرقها، أم أحتفظ بها، أأهبها، أم ألقيها في نهر السين؟ فَحرقها كان يشكّل استجابة للإحساس بالمطلق (الوجود بذاته)، أما الاحتفاظ بها فهو تلبية لإغراء اللحظة. ولكن هل سأصير إلى امرأة منطوية على ماضيها، مكرَّسة لعبادة عقيمة من قبيل تكرار قراءة الرسائل، وتأطير الصور الفوتوغرافية، ومداعبة الثياب؟ فقد كان يحدث أحياناً أن أبيع قطعة أثاث أو أن أبادل موقع واحدةٍ بأخرى، في حين كنت أُبقي كتاباً في المكان الذي كنتَ قد وضعتَه لأن ذلك كان يساعدني في إعادة تصوُّرٍ فراغية (رسم في الفراغ) لحركةٍ معهودة، نظرة ممنوحة، أو عبارة سبق أن قيلت. كنت أحاول تصنيم الزمن، تأبيد اللحظة، كنت أقيم تماثيلَ في الفراغ. ومع حلول الليل، كنت أندسُّ في سريرنا، أتسمَّر فيه، جامدةً مثلك، مطوَّقةً بالجدران، في مكان ما، معك، غائبةً حتى عن نفسي.

كنت أنتظر، بلا رجاء. وقد مضت شهور عديدة على هذه الحال. جردٌ لممتلكاتنا، حُسِبت ديوننا كلُّها، وقُدِّرت قيمة ماكنا اختزناه معاً، ماعدا الجواهر والممتلكات الشخصية. لم أكن منطفئةً بعدُ، إنما على شفا الانطفاء.

13

لم أعد أتذكَّر ذلك اليوم الذي شعرت فيه، للمرة الأولى، أنني لم أفقد كلَّ شيء بصورة قطعية. فهل هي ابتسامة طفلٍ تلك التي نفضت عني غبار النوم، أم أنها أمارة حزنٍ ساخرة تجنَّبت، وقتئذٍ، النظر إليها؟ هل هو الشعور بالمسؤولية؟ أم أن صبري قد عيلَ في النهاية؟ ببساطة، قد تكون لعبة الحياة هي التي احتوتني. للحقيقة مظاهر عدة إذ من المستحيل، بالنسبة لي، أن أحدِّد بدقة كيف قُيِّض لي أن أثبِّت قدميَّ من جديد. وذات يوم أدركت بأنني كففت عن أن أكون مجرد واجهة. بدأت أحيا، أتنفَّس؛ قرَّرت استئناف التأثير في مجرى الأحداث. وشيئاً فشيئاً كنت أتمالك نفسي من جديد، مدركةً أيضاً ما الذي تبقَّى مني. في تلك الأثناء

بدأت أتحمّل الوحدة، بل وأكثر من ذلك، تركت نفسي أتروّض على ألفتها.

باتت الوحدة مألوفة بالنسبة لي، نتعايش معاً الآن بشكل حسن، وأُحْسِنْ مواجهتها بجرأة أيضاً. أتحدَّث عنها مع أصدقاء يعتبرونها طبيعية دائماً في رأيي، ليس ثمة شيء في الدنيا أروع من وجود زوجين، وحين أسمع من يقول بأن من يحب يفقد حرِّيته واستقلاله التام، أتساءل ما إذا كنا نعبِّر عن المشاعر نفسها.

ذات مساء، وبينما كنت أتصفَّح كتاباً، أتذكَّر كيف وقع بصري على صورة تمثال، كثيراً ماتأملناها معاً؛ جذع (صدر) امرأةٍ أشبه بصرخة فرح تملأ الكون. بقيتُ واجمةً، لكنني لم أقلب الصفحة. انبثقت ثانيةً صور الماضي، أخذت أشهد عرضاً سينمائياً بلا نهاية، ثم تهادى إلى سمعي نشيد النصر، وعند أحد أيام تشرين الثاني تهاوى كلُّ هذا وذاك. بَدَا لي أنني تخلَّصت من الشّواخ. كنت وحيدةً في غرفتي، غير أني أَلِفتُها بالمعنى المليء للكلمة، وقد بدت لي مختلفةً عمَّا مضى. كنت قد انغمست في لُبِّ المشكلة، والآن أدرك أنني قد واءمت نفسي لتأمُّل الجمال من جديد.

مع ذلك كل الأشياء كانت تحزُّ في نفسي، لاسيما

نظرات التواطؤ التي يتبادلها الأزواج فيما بينهم، من وراء ظهر الآخرين، خَطْفاً، مثل عصفورين يلتقيان ثانية بعد افتراق، ويشرعان بالطيران فوق الصراخ ودخان السجائر وأقداح الويسكي؛ لاشيء آخر يهمُّ بعد، فلقاؤهما أعاد الكون إلى نصابه، والحياة بدت متوازنة، لاأهمية تُذكر لما يُسمع أو يقال؛ فالعصافير هناك، ترعانا؛ بعد قليل، وما إن نكون وحيدين في الطريق حتى نعثر عليها ثانيةً. بالنسبة لي مات العصفوران، بيد أنني لاأزال قادرة على الإحساس بالآخرين وهم يطيرون، وبوسعي أن أدُلَّ عليهم دون خطأ.

آخذة كل شيء بعين الاعتبار، أندهش من كونهم نادرين جداً.

لم يسبق لي قط أن قابلت الموت بقدْرٍ من الاستهتار كما في عهد سعادتي. ففي ذلك الوقت، كانت الحياة، وكذلك الموت، سِيَّان عندي تقريباً. أما اليوم فإن الموت يملأ كياني. أهجس به وأنا أقطع الشارع، وأنا أقود السيارة. إصابةٌ بالزكام من شأنها أن تتحوَّل إلى احتقانٍ خانق، نحولٌ بسيط قد يعني لي مرضاً عضالاً، لاألبث أن أخرج من خَدَري حتى ألج هذا العالم الحاد الذي طالما راعني، حيث كان كلُّ شيء

يجرحني دون أن أعرف كم من الزمن مرّ على ذلك. أتذكّر حالة الانفعال التي استبدت بي عند بوابة فيلليت (ڤييت) لدى رؤيتي شاحنة محمّلة بالخيول كانت في طريقها إلى المسلخ. فحتى مخلوقات كهذه، محكومة بالموت، كانت تقودني إليك. وفي أحد المساءات، بينما كنت في الحافلة، بقيتُ مبهورة جرّاء رؤيتي لجمجمة صغيرة، على شكل أيقونة، كانت تتدلّى من نهاية سلسلة ذهبيّة. كانت الفتاة التي تعلّقها شابّةً صغيرة السن وجميلة، عيناها تضجّان حيوية وشفتاها شاحبتان؛ أخذت نظراتي تجرّدها من لحمها إلى أن بلغت (وصلت إلى) هيكلها العظمي، وهناك، تراءى لي جمجمتان حلّت محلهما تلك الجمجمة التي لاتني تلاحقني.

كنت أتجنّب المرور بساحة سان ـ سِلبيث. وقد سبق لي أن عبرتها أثناء مرضك مراتٍ عديدة. وذات صباح لمحتُ مخزن شؤون الجنائز الذي يقع قرب الكنيسة بُغيةَ تسهيل العمل؛ وفي واجهته، كانت قد عُرِضت لوحاتٌ جميلة لجنازة متقنة التنظيم، وتوابيت مريحة، محاطة بشموع عسليّة كبيرة. واندلعت الفكرة: ذلكمْ هو المكان الذي سيُقصد، على الأرجح، من أجلك. لم أكن مستعجلةً حينئذٍ ولو أنَّ ألفَ طيرٍ أسود كانت أجنحتها تصطفق في صدري. حاجةٌ ملحّة

وحيدة كانت تلحّ عليّ؛ أن ألقاك ثانيةً، أن ألمسكَ. كنتَ لاتزال نائماً حين دخلتُ غرفتنا. تراجعت منسحبةً على رؤوس أصابعي، ثم تناولت كتاباً، منتظرةً استيقاظك. لم أقرأ شيئاً في الواقع، غير أنه كان لديَّ متسعٌ من الوقت كي أتمالكَ نفسي. وحينما ناديتَني جئتكَ بوجه رائق؛ الأمر الذي كنتَ تنتظره؛ وخلال معانقتي لك، كنت أستمتع ـ كالمستَقْتِلَة ـ بِنُتفِ الحاضر التي بقيت لي حتئذٍ. كان المدُّ يتصاعد، وكنت على يقين من أنني عاجزةٌ إزاءه، مع ذلك كنتُ أواصل الصراع خطوةً بخطوة. ففي أثناء سيري في شارع سان ـ سيلبيث كان رجائي الأوحد أن أراك ثانيةً وأنت حي. كنت قانعةً بقليل القليل من الفُتات الذي ألتهمه بنهم. تُرى، ما الذي تبقَّى من سعادتنا الأثيرة؟ لكنك كنت قد نمت بشكلٍ جيد. وها أنت تشعر بتعبٍ أقل مما كنت البارحة. وها قد شربت قهوتك بالحليب جُرعةً واحدة مع رغيف خبز تقريباً: «إنني جائع، جائع». كنتُ أمعن النظر في عينيك الشاحبتين وفي حواف أجفانك المحمرّة. كما قلتَ أيضاً: «قبل ثلاثة أيام كنتُ في المشفى، ولقد مضى الوقت بسرعة». حقاً، أنت لم تعرف شيئاً. فهذا الصباح، شأنه شأن الصباحات الأخرى، كان امتداداً لنقاهتك. كنت أصغي إليك وأنت تتحدَّث، ساعيةً إلى حيثُ يقوداني، حاجتي إليك وحبّي لك. وكنتُ

أجد نفسي من جديد عند التخوم ذاتها التي كنتُ قد حدَّدتها لنفسي عشيَّة عمليتك الجراحية: ليته لايتألَّم، ليته لايعرف. تلك كانت قاعدتي الوحيدة. كنت أتملَّاك حتى أقصى حدود الروح، أما أنت فكنتَ مُستسلِماً. كم من السنين، بل كم من الدقائق كنا قد أنفقنا بُغيةَ الوصول إلى ذلك الجزء الخفي الكامن لدى الآخر والذي كان لايزال أعمق بكثير من حدود المشاعر، حيث العقل والغريزة يكونا موحَّدَيْ الإيقاع. كنت قد أحببت سعيَنا وراء المعقَّد من الأمور، مثلما أحببت حذرنا من العاطفة السطحية. وكنا قد صبونا أن يُضرِم أحدُنا في الآخر حتى تلك الأجزاء الأقلّ قابلية للتوّهج. فمنذ ولادة حبِّنا لم نتوقف عن سبر أغوار بعضنا بعضاً، وعن الإفصاح عمَّا هو غامض في ذواتنا. فقد تخاصمنا، ولكن من دون سلاح، كما أننا رفضنا شريعة الغاب.

كنت أحلم، حينما كنتَ لاتزال هنا، بمحادثةٍ أخيرة. كانت تتملكني الرغبة في أن تحدِّثني عن كل شيء؛ عنك، عنَّا، عن الناس، عن أيِّ شيء تفكِّر فيه، أن أتهدهدَ بما كنت ستقول، مهموساً، مكرَّراً، أن أغفو على صوتك وأصحو معه، أن أتغذى بكلماتك وأتموَّن منها.

في آخر أمسية لنا، واصلتَ القراءة بعدي. سألتني إن

كانت الإضاءة مزعجة لي. لا، بل تسمحُ لي أن أسترق النظر إليك من بين أهدابي شبه المغلقة. كنت أسمعك وأنت تقلّب الصفحات، كلُّ شيء كان مُباحاً لي ماعدا البكاء، بيد أني لم أكن راغبةً به. حاولت أن آوي إلى ماضينا، لكنني لم أجرؤ على مفاتحتك به، لأننا، منذ حين، لم نَعْتَدْ استثارة الذكريات، علاوةً على أنك قد تستغرب استغراقي المفاجئ في التفكير بما صار ماضياً بدلاً من التفكير بالمستقبل. وهكذا تركتني أسرح مع نفسي بينما كنتَ تقرأ أو تكبو.

في مستَهَلِّ علاقتنا لم نكن ننعم إلّا بقسطٍ يسير من الحياة المشتركة؛ ساعة، فيوم، فشهر... كنت أتكوَّر على نفسي في تلك الشريحة البسيطة، والضيِّقة جداً، من الماضي. وكنتُ أعرف بأنها ستتسع (الشريحة)، لكننا لم نكن لنتحدَّث في الأمر. كانت لنا اندفاعاتنا واحتراساتنا. كنا لانزال نحترز إزاء بعضنا، يتربَّص أحدُنا بالآخر، منقِّباً عن مدلول كل كلمة. كان «ضمير الشأن»(*) يُسعِفُنا في الانتقال بين الـ «أنا» والـ «نحن». ولطالما استخدمناه لزمن طويل. أحد الأيام سُمِعَت الـ «نحن» كما لو أنها قِيْلَت عفو الخاطر، ثم

(*) on: يُقصَد استخدام حالة المجهول بالنسبة للفاعل = الفاعل العام دون تحديد. م.

مالبثت أن تمَّ التخلّي عنها، فلم نكن مستعدين لها بعدُ دون شك. بعد ذلك بزمن، صار استخدامُ «ضمير الشأن» استثناءً. في تلك الأثناء كنا نشرع في بناء حياتنا، وفي الوقت الذي أصبح ذلك معترفاً به كمُسَلَّمة، اكتشفنا بأننا كنا نكبِتُ تلك الرغبة منذ وقت طويل. ثم، دفعة واحدة، أصبحنا ننعم بمئات اللحظات والوقائع التي نقضيها معاً والتي أصبحت في عهدة ذاكرتنا لأنها كانت قد ألَّفت بين قلبينا. أحياناً، كان حضور أحد الغرباء من شأنه أن يجعلنا أكثر جرأة. مرةً كنت أتحدَّث عن نزهة تحت المطر، فقلتَ بأن سماء ملبّدة بالغيوم، قد تكون جميلة، كما وقلتَ بأنك شاهدت بستان التفاح يفقد أزهاره، بفعل العاصفة. لو كنا وحدنا لمَا كنا تفوَّهنا بكلمة واحدة عن نزهة مابعد الظهيرة تلك، والتي لامست شغاف القلب. كنا حينئذٍ في طور التآلف؛ الأمر الذي كلَّفنا جهداً طويلاً، وكان يستهلك حياتنا برمتها، بحيث كنا أحياناً نرتاح من ذلك، حينها كنا نقوم بمناورة مفاجئة، وبدون أن نتفاجأ بالأمر، كنا نتوقّف عن رؤية بعضنا بعضاً.

لقد أصبح حبنا شديد الطموح إلى حد أنه ماكان ليمارس أدنى ابتذال. وعقولنا حافظت على نُبْلها. ترسَّخت الثقة المتبادلة، ومع ذلك كانت تعوزنا محطات كهذه كيما

نقوم بمراجعةٍ ذاتية، وكيما نكون على قناعةٍ بأننا لانزال أحراراً في اختيار مستقبلنا، وبأننا مستقلان في تصرفاتنا وأهوائنا. كنا نتلاقى دون عاطفة مبتذلة، مطمئنين لظهورنا بمظهر العصيِّين على الأذى. كم كنت أحب تلك المسافة التي كنا نحافظ عليها بيننا!

ماكان للقائنا أن يكون إلّا لحظة رائعة، ذكرى جميلة ـ دون مخاطرة ـ لم تكن لتعدّل شيئاً في مجرى حياتينا. لاشيء أقلّ مجازفةً من المغامرات العاطفية. نفكّر بالحفاظ على العلاقة، ولانقدم لها شيئاً جوهرياً، اللهم إن لم نكن نسيء لها كثيراً، بحيث أننا من مغامرة إلى أخرى، ولفرط استخدام كلماتٍ وتصرفات في غير محلّها، كنا نضيّع أنفسنا شيئاً فشيئاً، كقطعة نسيج تآكلت بفعل الزمن قبل استخدامها.



14

في يوم مأتمك، وعندما خرجت من المقبرة، كنت على يقين بأنني كثيراً ما سأعود إليها، وأنني سأبقى كما أنا، أحبك بالقدر نفسه من دون أن أدخلها مطلقاً. في المساء الأول، وبينما كنت أغلق مصاريع النوافذ، لمحت السماء بلا قمر، شاسعةً كانت ومرهقة. وكنت وحيدة على الأرض. تمنيت لو تحملني الغيوم التي كانت تسبح. أسدلت الستائر مثل حيوانٍ يتخفّى في جحره. لم يعد ثمة حاجة للنظر إلى السماء، ولا إلى أيِّ شيء من كل ماكنت أحب. ولكنْ ما الذي يمكنني فعله لتحمُّل نظرة الأطفال؟ فقد مضى ثلاثة أيام دون أن أفكر بهم قط.

في اليوم التالي، خرجت للقياك. كان موعداً أخرق،

مونولوجاً إضافياً بقيت خارج الواقع دون أن أُفلِح في اقتحامه. أهذي بالأشياء نفسها دون أن أحرز أيَّ تقدُّم. هاهو قبرك أمامي، أنظر إليه من عَلٍ، ألمس التراب ولكن دون أن أستطيع شيئاً، كنت أوهم نفسي بأنك قادم، متأخِّرٌ، كالعادة، وبأنني سأحسُّك قربي عمَّا قليل، وبأننا سوف ننظر معاً إلى هذا القبر الذي أغلق ثانية للتو.

عبثاً كنت أحاول أن أُقنع نفسي بأنك أنت الميْت، وكان الخلط يبدأ من جديد. أنت لم تأتِ، لكنك تنتظر في السيارة، بصيص أملٍ كاذب، أعرف أنه كاذب، كان يعْلَق بي.

«نعم، سيكون في السيارة» ومع أنني وجدت السيارة فارغة، فقد احتميت بالوهم أكثرَ، لكأنني كنت أريد أن أمنح نفسي مهلةً: «إنه يتنزه على الرابية»، قلت لنفسي. وبعودتي إلى البيت، وأنا منهمكةٌ تماماً بالحديث مع بعض الأصدقاء، كنت أفتِّش عنك في الطريق، دون أن أصدِّق ذلك بكل تأكيد.

في المساء نفسه، عُدت إلى باريس، خُيِّل إلي وكأنني أتخلَّى عنك. فأنا لم أفعل شيئاً سوى أنني، تدريجياً، ومنذ ثلاثة أسابيع، أي منذ مغادرتك على متن تلك العربة داخل الممر الطويل الأبيض؛ منذئذٍ تركتك لمصيرك، مشايعةً خطوك،

مرافقةً لدربك حتى أقصى حدود الممكن، لكنني كنت باقيةً في عالم الأحياء، في حين كنتَ تنأى عنه دون أن تعرف ذلك؛ كما كنت أقرأ رحيلك في عينيك وفي ابتسامتك.

في الصيف التالي عُدتُ. كانت العطلة الأولى التي أقضيها بدونك. غادرت باريس مع اشتداد القيظ المرهق. ومنذ الفجر وأنا أتأمّل الروابي وهي تتالى أمام ناظري، وأشجار السرو، ودوالي العنب، وكذلك البحر الذي يبدو وكأنه يتوالد من رحم الضباب حتى يكاد يكون امتداداً طبيعياً للسماء. كنتُ أتعرّف مرة أخرى على هذا المشهد الخالي من الألوان، وعلى ارتعاشات الضوء المرافقة. لقد أدركت بأنني كنت أستعدُّ لموعدٍ آخر، دون أن أعترف بذلك، وبأن هذه الفكرة الخفيّة هي التي كانت قد قرّرت عودتي إلى هنا. بدأت تناقضاتي تظهر مرة أخرى: أهرب منك، لأبحث عنك من جديد، أجعل من المقبرة مكاناً للقيانا وأقول، أو أعتقد بأنه، من الآن فصاعداً، سيكون أطفالنا والذكرى فقط امتدادك. ولكن رغماً عن عقلي وجدتُني أمضي نحو آخر مشهدٍ رأيتك فيه، مدركةً أنه لم يعد موجوداً، وهو المشهد الذي سبق لحظة إيداعِك النسيج الناعم والرصاص على يد رجالٍ متلفّعين

بالسواد. لم أتلكأ بالذهاب إليك ورؤية الشجرتين والحاشية الحجرية. تُرى ما الذي كان يُنتظَر رجاؤه؟

انطلقت مسرعةً بالسيارة، وقلبي يتجشّم الغيظ. كان الطقس في غاية الروعة، والأطفال يغنّون. أصابني الذهول حالما رأيت البيت سليماً. كنتُ أنتظر ـ لاأعرف أي حماقةٍ استولت عليَّ ـ أنتظر ساحة معركة، خراباً، أشجاراً متفحّمة، تربةً من رماد، والكرمةَ عارية؛ لكنَّ كل شيء كان محتفظاً برونقه الدائم. من جديد، وجدت زيزان الحصاد، والريح تعبث بشجرة الدلب. وجدت أشجار الصنوبر الصهباء والخضراء، الأعشاب العالية، المرجة الناصلة (الكامدة) اللون، البوجينفيية(*)، والجيرانيوم(**) التي أصبحت وحشية، وشجيرة الغليسين(***) الكثيفة. لم يكن ثمة فوق تلك الأرض العذراء أي أثر لتلك المعركة التي كنت أتخيلها.

يبدو أنني لن أغيّر العالم كُرمى لرحيلك النهائي عن الدنيا. تركت الأطفال وصعدت إليك. كانت ساعة القيظ الحمراء التي تقتل الأزهار. الأشجار كانت قد كبرت،

(*) جنبة معترشة للتزيين من فصيلة الشبّيات.. المنهل.

(**) غرنوفي (فصيلة إبرة الراعي من ذوات الفلقتين).. المنهل.

(***) حلوة وسقارية (جنس نباتات معترشة من الفصيلة القرنية).. المنهل

والأرض انخسفت. منذ زمن طويل وأنا أومِن بهدوء المقابر. فقد كنا نحبُّ الذهاب لنلقي السلام على قبر فان كوخ وتيو، في أوفر؛ وكنا نحبُّ شجرة اللبلاب التي كانت تظللهما؛ كنا نقول بأن المقابر مكان هادئ ورائق، مثلما هو جميل التردُّد إليها والاستمتاع بدفء النار في آخر النهار حيث يتأهَّب شخصان لتأمُّل القمر وهو يطلع، ولسماع أصوات البوم، والإصغاء للسكون بكل طمأنينة. فيما اليوم، وحيث، قبالتك، السماء الزرقاء وشجرات السرو العاتمة والنسيم الناعم ليست كلُّها سوى مظهراً (ديكوراً). نظرتي كانت تغوص باتجاه أشياء مطمورة، تتسلَّل إلى الحياة الـ تحت أرضية، والشديدة الفظاعة، حيث كلٌّ يتعفَّن وحيداً بما في ذلك أنت أيضاً، أنت الذي ترقد على مسافة مترٍ واحد مني.

لاشك أن بضعة مئاتٍ من السنين ستنقضي حتى تتفاعل هذه العناصر البسيطة، التي يتكوَّن جسدك منها، بشكلٍ متساوقٍ مع طبقات الأرض، وحتى تصبح أنت، ثانيةً، غباراً، ملحَ الأرض، بضع حفناتٍ من الرمل قد يتسنَّى للأجيال القادمة أن تتركها تنسرب من بين أصابعها، تماماً مثلما كنا نحب أن نفعل، حينَ عيوننا مغلقة، وجسدانا مستلقيان، ووجهانا صوب الشمس، الذراعان مُتصالبان، فيما أيدينا

تداعب الساعة الرملية، ونحن مأخوذان بنعومة الرمل وحرارته اللذيذة المنعشة.

كنت أتخيّل هذه المليارات من الخلايا التي احتشدت كما مُزنةٍ من نجوم لكي تصوغ ذلك الكائن العزيز الذي لم يكن ليتكرّر أبداً. فجأةً عاودتني الحكمة. لم يعد هنالك موعد. كنت وحدي في حضرة موتك، بل وحدي قبالة الفراغ. كان بوسعي أن أبعث صوتك، أستعيدَ الاستماع لأحاديثنا، أتصوّرَ حركاتك؛ وكان بوسعي كذلك أن أبعث الحاضر، أنشئ حواراً وهمياً، في حين أنني لم أكن أنتظر شيئاً منك في الواقع. فهاهي الحقيقة تمثُل أمامي. أنت لم تعد في هذه الدنيا، غبتَ إلى الأبد. وأنا، لاينِي يتردّد على مسمعي صوتٌ خافت عديم الرحمة، بثُّ أميّزه: «عِيشي أو موتي، لكن قرّري، ينبغي حسم الخيار».

في هذا اليوم كان لدي شعور بأنني غير مهيّأةٍ للصحو. ربما أهتدي إليه غداً، في غضون عشر سنوات أو أبداً. خلال عودتي، ومن على الطريق، رأيت الأطفال يلهون. كانوا قد استعادوا ألعابهم ونصبوا الطاولة الصغيرة البيضاء. إنهم يستعدّون للصيف.

كدتُ أفسدُ عليهم سعادتهم وأصطحبهم إلى فوق،

هناك، كيما يتأكّدوا بأنفسهم أن ليس ثمة عدالة، غير أني استدركت وخرجت معهم للقيام بمشوارنا المعتاد. كانت شجيرات الكرمة قد زَغَفَت منذ عام، فيما الدوالي الأخرى كانت تتدلى عناقيدها البكر.

كان كلّ شيء مستمراً في الحياة. مرة أخرى ـ مع علمي بأن نقاط ضعفي ستكون كثيرة ـ قررتُ، أنا الأخرى، أن أستمر: أن أكون شجيرة واعية، تتكيّف مع إيقاع الفصول، تتنفس بعمق، تقول «نعم» وتحسّ بنبض قلبها. كان طفلاي وديعين، كلّ يمسكني بيد، وكنت أخشى أن يكونا قد اكتشفا اضطرابي، أحسست بالمسؤولية، الأمر الذي أسهم في إنقاذي لهذا اليوم. واقترحت أن أحكي لهما حكاية؛ ولكن أي حكاية؟

ـ إحك قصة الثور الصغير.

وحكيت لهما قصة الثور الصغير الأسود الذي كان يعيش سعيداً مع أمه في كامارجو إلى أن أتى الرجال ذات يوم وأخذوه إلى جولة مصارعة.

ـ إنه لن يموت، أليس كذلك؟

ـ كلا، بالطبع لا، فهو سيقهر كل الصعاب.

ـ مادام من المؤكَّد بأنه لن يموت، إذن دعيه يخوض مغامرات خطيرة.

شرحت لهما بالتفصيل كيف كان قد تصرّف كيلا يُقتل على يد مصارع الثيران. كان ذكياً وطريفاً، وكان يقرأ الزمن ويعرف بأنه بعد خمسة عشر دقيقة سوف يكون قد نجا بحياته. لقد صارع بشجاعة دون أن يدع نفسه يقترب أبداً، وكان مدركاً بأن سيف الغدر كان مخبّاً تحت العباءة الحمراء. كان المتفرّجون يضحكون لأن الثور كان ينجح دائماً في إحباط مكائد الرجل، وما إن أعلنت الساعة انتهاء المبارزة حتى دوّى تصفيق حار في الحلبة، من ثم هبَّ الجمهور هاتفاً: «ليحيَ الثور»(*)! عند المساء أُعيد الثور إلى بيته. لقد كانت المرة الأولى التي يعود فيها ثورٌ من مغامرة كهذه. وقد استُقبل استقبال الأبطال، ثم تزوّج طبعاً، وصار لديه الكثير من الأطفال.

كان الطفلان يصغيان، توقفنا عن السير، ووجدنا أنفسنا، دون سابق تفكير، جالسين على جذع الشجرة المعهودة ـ إيّاها. لقد صرت خبيرة بمتابعة فكرتين دفعةً واحدة؛ كنت أسمعُني أتحدَّث، أنا التي أتحدَّث بكل تأكيد، لكنني

(*) ورد التعبير بالاسبانية Vivaeltoro.

كنت مشطورة أيضاً بفعل غيابك إلى حد أنني أكاد لاأتبيَّن ذاتي. كان الريف جميلاً بحيث يصعب وصفُه. وكانت تنبعث من الشمس ومضات خاطفة لكأن السماء ماكانت حينئذٍ إلّا لتؤدي دورها كشاشة المصور التي ابتدعُها. أسهمٌ نارية خافتة وفظّة كانت تبهُت في الفضاء، أو بروق في غاية الوضوح كأنها شظايا تنبثق منك وتصعقني دون أن تزيلني من الوجود. كانت نظرتي تدأب دون كلل لعلّها تعثر على ابتسامةٍ، خطوةٍ متوائمة، ساقك اليسرى وساقي اليمنى وهما ممتدتان في اللحظة ذاتها نحو الأرض، ذراعيَّ وهما مُشرَعان لاستقبالك على عتبة البيت، طريقتك في استنشاق ماكنت تتقصَّد أن يكون الشهيق الأول في عطلتنا لكأنّك تريد أن تعلن: «الآن، وفي هذا المكان، تبدأ عطلتنا». كنتَ لحناً عابراً، غيرَ مُكتملٍ، نسقاً متطوعاً(*) وكنت أبصر مستقبلك مُقرَّراً ومستبدَلاً به: «لقد كان». كنت أحلم بتصريف فعل الكون: «أنا أكون امرأةً سعيدةً، أنت تكون رجلاً سعيداً».

انتهت الحكاية. وابتعد الطفلان. كنت أتابعهما بنظري

(**) Arabesqe: النسق العربي (في الزخرفة). وضع من أوضاع رقص «الباليه»، يقف فيه الراقص على إحدى قدميه، ماداً إحدى ذراعيه إلى الأمام، راداً القدم والذراع الآخرين إلى الوراء. المورد.

وهما يمشيان. كانا رائعين، وهشين كآمالٍ مرجوة، إنهما حياتان يافعتان، وأنا مسؤولة عنهما. كان لابُدَّ لي أن أوصلهما إلى مرفأ ما، ولكن لست أدري أي مرفأ. تُرى هل سأنجح في تجنيبهما المتاعب التي واجَهَتْنا؟ وهل ينبغي القيام بذلك؟ ألا تقتضي الضرورة بأن يتمتَّعا بقدر من القوة والحب يكفي لتمكينهما من خوض معركة الحياة، ومن استهواء هذه المعركة. إن مراهقتهما على الأبواب، أكاد أراها الآن. كنت أتطلَّع إلى السعادة، إلى الروعة، ربما كنت على خطأ، لكنَّ الشيء المؤكَّد أن ذلك كان يمدُّني بأسباب السعادة.

15

انقضت العطلة بين ضحكات الطفلين. سلكتُ الطرقات نفسها والتي تؤدي إلى الشواطئ والجروف الصخرية نفسها، مسلّمةً قيادي للريح مثلما كنا نفعل سابقاً. لم يكن هنالك سوى طريق واحدة لم أسلكها ثانية أبداً. كانت محاطة بالقصب المتشابك تقريباً حيث كانت السيارة تباعد مابينه وهي مندفعة إلى الأمام. وكان الضجيج الذي تثيره سيقانُ القصب الطويلة لدى ارتطامها بهيكل السيارة، يلهب حماس الطفلين، فكانا ينتصبان واقفين كي يلتقطا بعضها؛ وكنا نتقدم ببطء كيلا يجرحا. رحلتنا كانت مغامرةً، فالغابة البكر تحاذي شاطئ البحر. وماكدنا نهبط من السيارة حتى بدأ الطفلان يتعرّيان، والقصبات تعلو في أيديهما كرايات حرب، وبدأا يسرحان ويمرحان فوق الرمل الحارق.

وحالما كانت أقدامهما تلامس البحر اللامتحرك كانا ينتظراننا. وقد كان حمّامهما الأول، هو الأكثر صخباً في ذلك النهار. كنا نرشق الماء بحفناتنا. وكنتَ تمسك طفلاً بعد الآخر لتقذفه إلى الأعلى بأقصى مالديك ثم تعود لتلتقطه آن ملامسته وجه الماء. كانا يزعقان من الفرح: «مرةً أخرى، مرة أخرى. دَوْري الآن». لكنك كنت تتعب مباشرة. «مرة أخرى فقط» هكذا يتوسلان، وكنت تجيب: «حسناً، مرة واحدة لكل منكما وينتهي الأمر».

مرةً تلو الأخرى، أسمع ضحكاتهما المتواصلة، والتي كانت تُقْطَع لجزءٍ من الثانية حين يكونان معلّقين، وحيدين، في الهواء، مثل كرة؛ ثم يستعيدان أنفاسهما وهما نهبٌ لخوف طفيف، يتوخيانه ويحبان الإحساس به عندما يشعران بالأمان. بعدئذ كانا يواصلان لهوهما منفردين، في حين نكون نحن متمددين على الرمال الصهباء، ومستسلمين للشمس. كانت حركاتهما تتخامد تدريجياً، لكننا سرعان مانسمع صرخة كصرخات الـ Sioux(*)، معلنةً عن بناء

(*) Sioux: مجموعة من الاثنيات (الأعراق) الأمريكية الشمالية التي كانت ـ تشكل عائلة لغوية كبيرة. وكانت تعيش في سهول أوكانساس، وكانوا مزارعين، سكن غالبيتهم في قرى حضرية (أي كانوا مستقرين ولم يكونوا رحّلاً). (لاروس الصغير).

كوخٍ، غير مكتمل بصورة دائمة، وهو عبارة عن حفرة مزنَّرة بالقصب؛ ومؤطرةٍ بمنشفة؛ وفي موسم الزنابق البحرية، تكون مُزَينة بهذه الأزهار التي تنبت في الكثبان، والتي أضعها الآن فوق قبرك.

خلال الفترة الأولى من الصيف، عشتُ نوعاً من الحياة اللاواقعية، والمزدوجة، ولم يسبق لي قط أن أحسست، إلى هذه الدرجة، بمدى العذوبة التي انطوت عليها مداعبة الشمس والماء لجسدي، ورائحة الملح على بشرتي. انتظرت حتى نهاية النهار كيما أصعد إليك. لم يَعُد هذا موعداً بعد، فقد جئت لأتأمَّل التراب الذي يلامسك، والأشجار التي تطوقك جذورها. سقيت الغرسات الفتيّة، واللبلابة التي مايزال عودُها رخصاً، وهي عرضة لحرارة الشمس التي تلفحها. كانت التربة تتشرَّب الماء بصوت شبه آدمي.

عدتُ. كان الطفلان كثيري المطالب، شديدي التأثُّر، وكانا جذلين وهما يلتهمانني بعيونهما، إنهما الحياة. كنت جائعةً، عاودتني شهيتي للطعام، لكنني أدرت ظهري إلى الليل البالغ الروعة. كنتُ أعرف أن هناك، خلف درفات النوافذ، قمراً ينساب ضوؤه، غامراً الصنوبريات المظليّة والوادي الصغير

والسنديان الأخضر. لقد حدثتني رغبة بالصعود إليك والتمدُّد قربك. لم أكن على يقين تام من جاهزيتي للقيام بذلك. بدأت أقرأ.

مع حلول آخر الصيف، أصبح قبرك مألوفاً لي. وغالباً مانجحت في تصوُّره في خاطري وأنا بعيدة عنه، بنوعٍ من الهدوء المفتعل أحياناً. كنتُ أتتبّع في مخيلتي نمو الأشجار. عرفت متى تعدَّت حدود الحائط، وبأن ذُراها أصبحت تطلّ على البحر. أعرف كيف تلهو ظلالها فوقك، وماهي الرياح التي تبلغها. حيثما كنتُ، وكلَّما رغبت، أسمع الضجيج الصادر عن الطرقات، أسمع أصداء القرية والثورات الغاضبة لرياح الميسترال(*)، والزوابع المديدة لريح الشرق، والمطرَ وصريرَ باب الحديد عندما يدفعه زائر.

نعم كنت أميّز كلَّ الأصوات كتلك المشابهة للتي تحدث فوقك. وأعرف المواعيد التي تحطُّ فيها العصافير لترتشف ماءَ ورودِك.

(*) Mistral: ريح شمالية عنيفة باردة تهبُّ على المقاطعات الفرنسية الواقعة على البحر المتوسط. المنهل.

16

تمضي الشهور والأعوام، وتتوالى الفصول من جديد. وهاهو ربيع آخر؛ يتهادى إليَّ، بمهابة هادئة، وعلى شكل هبَّات متواترة. يمنحني القوة والأمل، ثم يعود ليجرِّدني منهما. لطيفاً كان أم ثقيلاً فإنه يتغلغل فيَّ حتى نقي العظم. يكفي قسط يسير من الربيع، مصحوب، فجأةً، بهواء فاتر جداً؛ يكفي تغريد عصفور، تفتُّح برعم على شجرة من أشجار حديقتي، وقْعُ المطر، انفجار ضحكة تتهادى عبر النافذة، يكفي أيٌّ من تلك الأشياء كيما يكون كل شيء مثارَ بحثٍ من جديد. فالهدوء الذي كنت أخاله راسخاً، والتعقُّل الذي كنت مزهوةً به، القرارات المتَّخذة، الحقيقة التي لاتقبل الجدل، ثورة الغضب المهدَّأة، الألم المبطَّن، وقصوري المنيفة المنيعة؛ كلها تقوم على أساسٍ واهٍ. هاهو الإعصار، هاجع الآن، لكنه

على أهبة الانقضاض عليَّ مع أول هَدْأة للسماء، ومع البراعم الأولى الخُضر التي ترسم هالةً واهنةً حول الأشجار.

«إنه الربيع، سألبس جورباً أبيض. كل صديقاتي الصغيرات لديهن مثله!» صرخت بي ابنتي لائمةً.

حقاً، الحيوان ينبض بالحياة، يشم، يعرف، يحسُّ بالعدل. عقلي يلتقط العلاقات السببيّة (سبب - نتيجة)، لكنه لايستطيع أن يمنعني من الارتجاف. فالجسد لايكذب أبداً، يعرف كيف يستجيب لنظام الأشياء. أشعر أنني هشةٌ، يجتاحني الارهاق. أخرج من غفلتي لأجدني أنتقل من الغيظ إلى الألم. إنه لأمر مُخزٍ ألّا تكونَ هنا. غالباً ما أتأمّل عجوزين وهما تعبران الشارع. تُمضيان قرابة الساعة ريثما تصلان إلى الضفة الأخرى من الشارع الذي أراه. إحداهما منحنيةٌ إلى الأمام بزاوية قائمة، تسندها الثانية؛ ثم تتقدّمان دون الالتفات إلى أحد، ودون أن تنبسا ببنت شفة، لكأنهما دميتان آليتان متشحتان بالسواد؛ الوجه شاحب، حتى أنه من غير الممكن استقراء الملامح التي كان عليها من قبل. تُرى هل تحسّان الآن بحلول الربيع؟ وهل تكفي تلك البقيّة الباقية من الإيماءات التي تقومان بها؛ وقلبهما الذي يخفق، هل يكفي ذلك كلُّه للقول بأنهما على قيد الحياة؟ ربما أن تشبثهما بالحياة يفوق مايفعله مراهق بالغُ الوسامة ومستعدٌّ للموت من أجل حبيبته، ربما

يفوق أيضاً تشبُّث ذلك الشاب الجميل الذي كُنْتَه، والذي كان يردِّد: «بودي لو أموت على نحو جميل!».

الربيع يحمل معه الألم. وأنا، أتوخّى منه السحر. وفي كل عام آمُل أنني سأكون مهيَّأة كي أحياه، أو أن يَسَعْني أن أنسى طعمه. ألم أتقدَّم، والحالة هذه، خطوةً إلى الأمام؟ هل أنا أَشْبَه بسنجاب أسير جحره؟ هل كان يمكنني أن أتكوَّر على نفسي، في قعر سريري، منذ موتك، من دون أن يكون ذلك أكثر سوءاً؟

عذوبة الجو تجعلني أحلمُ بما كان، بما يمكن أن يكون فيما لو كنتَ هنا. أعرف بأن حلم اليقظة هذا ليس سوى تعبيراً عن عدم قدرتي على أن أعيش الحاضر. أترك نفسي محمولةً بهذا التيار دون أن أنظر بعيداً أو عميقاً، أنتظر اللحظة التي سأستعيد فيها قوَّتي. ستأتي. أعرف بأن الحياة لاتزال تغريني (تفتنني). وأريد أن أنجو بنفسي، لاأن أتحرَّر منك.

انتهت

إصدارات حديثة

زمن تنهيدة (رواية)	آن فيليب
أشيني (رواية كندية)	إيف تيريو
قصص قصيرة من الأدب الكندي	مجموعة كتّاب
الصفقة (رواية)	فيكتور جيرناك
قوة الأسطورة	جوزيف كامبل
أقاصيص شرقية	مارغريت يورسينار
شخصية الابن البكر	كيفين ليمان
التوظيف الاجتماعي للمحرّم (التابو)	سليمان حريتاني
ولادة إله (التوراة والمؤرخ)	جان بوتيرو
أساطير التوراة الكبرى وتراث الشرق الأدنى القديم	كارم محمود عزيز
مصر في زمن الإبهام	فلاديمير فينوغرادوف
صناعة المؤرخ	غي تويليه و جان تولار

من إصدارات ١٩٩٧ ـ ١٩٩٨

نقد العقلانية العربية
تاليف: إلياس مرقص

نيتشه مكافحاً ضد عصره
رودولف شتاينر

الله والإنسان على امتداد ٤٠٠٠ عام
كارين آرمسترونغ

اخلاق الإنجيل (دراسة سيسيولوجية)
البير بايه

الجواري والقيان
د. سليمان الحريتاني

هرمس المثلث العظمة (نصوص قديمة)
لويس مينار

مفهوم العدل في الإسلام
د. مجيد خدوري

الأحناف (دراسة في الفكر الديني التوحيدي قبل الإسلام)
عماد الصباغ

الإسلام والسلطان والمُلك
د. ايمن ابراهيم

مفهوم الإنسان عند ماركس
تاليف: إيريك فروم

قوى وآفاق (تاملات في الطبيعة الإنسانية والنظام الاجتماعي)
تاليف: نعوم تشومسكي

الفرعون الأخير
تاليف: فرنسيس فيفر

الإسلام وحقوق الإنسان
تاليف: د. رفعت حسان





زمن تنهيدة

على صعيد الديمومة الزمنية ما الذي تشكّله حياة الإنسان في سُلّم الكون؟ إنها «تكاد تكون الزمن الذي تستغرقه تنهيدة». نقول هذا ونعرفه، ولكنْ ماقيمة هذه الحكمة حينما يقرع الموتُ الباب، حينما يحصد أحدُ الزوجين في ريعان شبابه، تاركاً الآخر في البيت الفارغ؟

في تدفق الذكريات، حيث تختلط الساعات الأليمة التي سبقت هذا الفراق الأبديّ مع اللحظات السعيدة لما قبل المرض. هذا الوصف الدقيق الذي يصدر عن آن فيليب يطفح بالتأمل العميق في الموت، في الحب، وفي السعادة.

كل مايقال من خلال النبرة الأكثر صوابية عمّا يقتضيه الفراق، وبالتالي عمّا يفترضه من استجماع همّةٍ بُغية تحمّله وقبوله - انتصاراً للصفاء على العزلة والألم، دون استجداء الغيب. وهذا مايمنح القيمة لهذه الصفحات الثملة بالعذوبة والوضوح.

